الفصل الثالث

خصائص الفكر الحضري
في
تخطيط المدن السومرية الطلائعية

إذا أردنا أن نضع أسساً جديدة للحياة الحضرية، فإنه يتعين علينا أن نفهم طبيعة المدينة في ضوء تطورها التأريخي، وأن نفرق بين مهماتها الأصلية والمهمات التي تولدت عن وجودها.

لويس ممفورد

مقدمة
في دراسة تخطيط المدن السومرية

إذا رجعنا إلى معظم جذور التغيرات الجوهرية التي ساهمت في تكوين المدينة (عوامل النشأة) نجدها قد حدثت قبل بداية عهد المدونات التاريخية التي بظهورها كان قد انقضى وقت طويل على ظهور المدينة، وكانت منظومة الحياة الحضرية قد طبقت في المدينة بقوالب ثابتة[١]. لذلك فقد تم الاعتماد على المخلفات المادية والأثرية رغم أن تلك المخلفات لا يمكن الكشف عن طريقها عن مدينة قديمة بكاملها لأنها لا تمثل جميع مخلفات المدينة، وإنما تمثل الجزء اليسير الذي توصلت إليه معاول المنقبين، وتحليلاتهم الفكرية والمادية. وبالتالي لا يمكن أن نملأ فراغها الشاسع بحفنة من الآثار أو بضع مئات من الصفحات المدونة. ولذلك بات من العسير إعطاء صورة دقيقة للعناصر الحضرية في المدينة[٢]. ومع ذلك فقد أثارت تلك المدونات التي وجدت في أور ولكش والوركاء صوراً كانت أم رموزاً إلى وجود المعبد، والبرج، والماء والحديقة والقلعة والطريق والسوق[٣].

مما يجعلنا قادرين على إعطاء وصف لا يستهان به لعناصر التكوين الحضري لتلك المدن.

وفي هذا السياق يقول لويس ممفورد "عندما تبلورت أنظمة المدينة لم يدخل على الشكل المثالي أو النموذج الأصلي للمدينة إلا تعديلات قليلة جداً تثير الدهشة، فإن مدينة الأسلاف التي بدأت بوصفها على أنها تجمعاً للقوى العاملة تحت زعامة

١- ممفورد، لويس. المدينة على مر العصور - ترجمة د. إبراهيم نصحي مطبعة مصر - القاهرة 1964 ج 1 ص 99.

٢- المصدر السابق ص 99.

٣- المصدر السابق ص 115.

حازمة موحدة تعتمد على نفسها، وكانت وقبل كل شيء أداة لبث روح النظام بين الناس، وقهر الطبيعة مع توجيه المجتمع ذاته[١].

وهكذا فقد صار التميز ممكناً بين القرية والمدينة، وبين الحياة الريفية وحياة المدينة. وعندما عرفت المدينة بأنها مكان وفعاليات بشرية، وصارت توصف عن طريقه بأنها: "رقعة واسعة من الأرض تضم عدداً كبيراً من السكان غير المزارعين الذين يعيشون على مبادلة المنتوجات المصنعة، والخدمات الضرورية". فقد تمكن المنقبون من توضيح هوية استعمالات الأرض الحضرية في المدن السومرية الطلائع urban land use وتحديد بدايات تلك الاستعمالات التي خلفتها عوامل النشأة الأولى لتلك المدن. وكيف أن تلك الاستعمالات برزت بعد أن غادر المزارعون المنتجون للطعام مراكز المستوطنات، واستقروا في الأطراف والظهير المحيط بتلك المراكز، واستعيض عنهم بشرائح من مستهلكي الطعام، والذين يقومون بإنتاج الخدمات التي شكل اقتصادها في تلك المستوطنات ما يعرف اليوم باقتصاديات المدن أو الاقتصاد الحضري urban economy الذي يعرف بأنه: مجموعة من الأنشطة المتخصصة التي تظهر فيها تقسيمات العمل، وتتضافر فيها عناصر الإنتاج، وتدار من قبل سلطة مركزية[٢]. والتي يراها لويس ممفورد على أنها مجموعة من الخدمات والمنتوجات المصنعة المعدة للاستهلاك المحلي والمبادلة التجارية. والتي يصفها: بأنها الخدمات التي لا يمكن أن تؤدى إلا في المدينة نفسها لأنها ثمرة روابطها التاريخية، وتكوينها الفريد في تشابكاته وتعقيداته[٣].

ومن هنا فقد تمكن المنقبون من تشخيص الطبقات الأثرية التي تخص الحياة الحضرية في المستوطنات السومرية، وبالتالي تحديد مراحل وعناصر التطور الحضري التي صار وجودها يمثل استمراراً لما قد أفرزته الحياة ومتطلباتها في عصور ما قبل التاريخ. (عصر القرية) أو ما استجد من متطلبات عبر المراحل الحضارية التاريخية (عصر المدن). وإنّ محاولة استقصاء تلك العناصر إنما يعني متابعة الفكر التخطيطي urban planning الذي مارسه العراقيون القدماء

١- المصدر السابق ص 170.

٢- بتن، كي، جي - الاقتصاد الحضري - نظرته وسياسات. ترجمة د. عادل عبد الغني وآخرون إصدار مركز التخطيط الحضري والإقليمي - جامعة بغداد - 1986 ص 15-18.

٣- ممفورد - لويس - مصدر سابق ص 170.

وأمكن عن طريقه تقديم الشكل المعبر عن وظائف تلك المدن، وتسهيلاً لتلك المتابعة سوف نعتمد منهج الدراسات الحضرية الذي يتحقق عن طريق[1]:

1- اختيار مدينة واحدة ودراستها بصورة منفردة.

2- اختيار مجموعة أو نظام متكامل من المدن يتم عن طريقه دراسة توزع تلك المدن وتباعدها وحجومها ووظائفها.

مع مراعاة أن دراسة الخصائص والعناصر الحضرية للمدن يتم بطريقتين هما:

أ- الطريقة الوظيفية functional approch التي يتم عن طريقها التعرف على الوظائف التي تقوم بها، وتحديد الأقاليم التي تقع تحت تأثيرها.

ب- الطريقة التشكيلية morphological أو التركيبة التي يمكن عن طريقها دراسة وتحليل تركيب المدن الداخلي وشكلها، ونظام توزع استعمالات الأرض فيها، وطريقة تخطيطها، ونظام شوارعها، وتقسيمها إلى أقاليم وظيفية، ودراسة العوامل التي أدت إلى توسعها.

ولدراسة الخصائص والعناصر الحضرية في المدن السومرية الطلائع. وجد أنه من الأنسب اختيار الطريقة التشكيلية مع بعض الإشارات إلى عناصر الطريقة الوظيفية ولتحقيق هذا الغرض سيجري:

1- تناول ثلاث نماذج من المدن السومرية الطلائعية لمتابعة خصائص وعناصر تكونيها الحضري الذي يعبر عن الفكر التخطيطي لدى السومريين.

2- وللذهاب في اتجاه أمضى في تتبع خصائص الفكر التخطيطي السومري في تلك المدن سيتم مد عطاء ذلك الفكر إلى فترات متأخرة من عصر السلالات للمستوطنات نفسها تسهيلاً لبعض المقارنات ومتطلبات المواصلة للفكر الحضري والإقليمي في تلك المدن وهي:

1- مدينة أريدو باعتبارها المركز الديني الأول لبلاد سومر.

2- مدينة الوركاء باعتبارها المركز السياسي والديني في بلاد سومر.

3- مدينة أور باعتبارها المركز التجاري والسياسي والديني.

إذ سيتم دراسة ما تيسر من الخصائص الحضرية، والإقليمية لتلك المدن، والتي تعبر عن أو تحتضن الفكر التخطيطي لدى السومريين أول صناع الحضارة المدنية في أولى بقاع العالم. تلك البقعة التي اختصها الله تعالى لتكون منبعاً ومناراً

١- حسين - عبد الرزاق عباس - جغرافية المدن - طبع مكتب بغداد 1973. ص 2-4.

للفكر الحضري، والتي لم يكن عطاؤها هذا إلا سبقاً للريادة والأصالة في تقديم الفكر التخطيطي الحضري، والإقليمي مهما تشدقت أو تسابقت نظريات التركيب الداخلي للمدن، ونظريات علاقاتها الإقليمية في وصف حقيقة تخطيط المدن على ضوء التجارب الحديثة، سواء تلك التي نسجتها الأفكار الغربية (وبالأخص الاستشراقية) أم ما وصف عن ريادة للعرب والمسلمين فيها[1]، والإدعاء في سبقها لوصف الظواهر والمعطيات الحضرية والإقليمية. مما يجعل الإنجاز السومري في عطائه للفكر الحضري والإقليمي يمثل دائماً الريادة، والأصالة في فهم التخطيط المديني (الحضري) والإقليمي.

١- لا يبتعد معظم الكتاب العرب عن منح الريادة لابن خلدون والفارابي في مجال الأفكار التخطيطية للمدن والأقاليم.

خصائص الفكر التخطيطي السومري

لقد احتضن الفكر السومري الذي انصب على إنشاء المدن جملة من الخصائص التي ظهرت في عناصر البناء الوظيفي أو التركيب الداخلي للمدن السومرية، وأشكالها، وعلاقتها الإقليمية التي شكلت اليوم مقارنة بالخصائص نفسها أو ما أضيف إليها من ريادة تخطيطية أصيلة[1] أو متأصلة في ذلك الفكر تمثلت في:

أولاً: الخصائص الموقعية والموضعية للمدن السومرية الطلائع:

من المؤكد أن مواقع المدن السومرية الطلائع ونقصد بها أريدو وأور والوركاء هي المواقع نفسها التي احتلتها عندما اتخذت قرى استيطانية في السهل العراقي الجنوبي إلا أن هذا الاختيار نفسه يكشف عن السبق الذي جعل من تلك المواقع الجغرافية عاملاً فعالاً في تحول تلك القرى إلى مدن، حيث كان له الأثر الأكبر في نشأة المدن السومرية الأولى. ولتوضيح الفكر التخطيطي في مراعاة الخصائص الطبيعية عند اختيار مواقع تلك المستوطنات التي أصبحت مدناً يجب أن نوضح أمرين ونتابع وجودهما في الفكر الذي اختارهما:

1- مراعاة الخصائص الموضعية location: وهي الخصائص التي تشمل الصفات الجغرافية الطبيعية للمنطقة، أو المساحة التي تحتلها المدينة من تضاريس أرضية، ودرجة انحدار (كنتورية) الأرض التي تقوم عليها المدينة (جيمورمولوجية) الأرض وتركيبها الجيولوجي، والمناخ المحلي الذي يسودها، والعامل المؤثر في ذلك المناخ.

2- مراعاة الخصائص الموقعية situation: وهي الخصائص التي تبرز مركز المدينة، وعلاقتها بالنسبة للمنطقة المحيطة بها أو خارج حدودها، حيث إن لكل مدينة علاقات اقتصادية واجتماعية وسياسية مع المناطق

١- يرى الدكتور خالص الأشعب: إن ابن خلدون كان أول من حقق الريادة في فهم التخطيط المديني والإقليمي. "انظر مجلة كلية الآداب العدد 26 حزيران 1979 ص 315".

الأخرى تختلف بها عن غيرها. مثلما تنفرد المدينة بصفاتها الموضعية عن سواها من المواضع.

فإذا نظرنا إلى الفكر الذي اختار موقع وموضع أريدو sit and staution of eredu التي تمثل أولى المستوطنات البشرية في القسم الجنوبي من العراق، والتي استوعبت كافة أدوار عصر العبيد، وما تبعه من عصور تاريخية. لوجدنا بأن هذه المستوطنة هي من أهم المدن التي تتميز في اختيار موقعها في ذلك السهل وموضعها منه.

فالنسبة لموضع أريدو: وإن بدا عند بداية التنقيب عام 1949 بشكل رابية مغطاة بطبقة ناعمة من الرمال التي حملتها العواصف الترابية فإن ذلك لم يمنع من تقصي حقيقة الموضع الأول الذي احتلته مدينة أريدو عندما كانت قرية، وهو ذلك الموضع الذي اتخذ من تل أبو شهرين مكاناً له، والذي يبعد الآن 24كم جنوب غرب مدينة أور التاريخية، أي ما يقرب من 40كم جنوب غرب مدينة الناصرية مركز محافظة ذي قار الآن. والتي تقع على ضفتي نهر الفرات بمستوى 3م فوق مستوى سطح البحر. في حين يقع موضع أريدو في منخفض سهلي ينحدر في بعض أطرافه عن مستوى سطح البحر عند الجنوب الشرقي نحو 8.5م (شكل رقم 37)[1] وتتجمع فيه مياه البحر مكونة أهواراً ومستنقعاتٍ واسعة شكلت مصدراً أساسياً للصيد والزراعة عند بداية استيطان موضع أريدو. مما جعل موضع مستوطنة أريدو يظهر في هذه المنطقة على شكل جزيرة طبيعية تكونت نتيجة لترسبات وتراكمات غرينية ورملية مستمرة شكلتها مياه الفيضانات ومجاري الأنهار، أو بفضل الكثبان الرملية الذي لم يزل يعاني منها ذلك الموضع[2].

1- safar. Fuad, mohammad ali Mustafa. Seton lioyd "eridu state organization and heritage ministoty of culture and information Bagdad 1981 p 29.

٢- الأعظمي. محمد. طه - مصدر سابق ص 127.

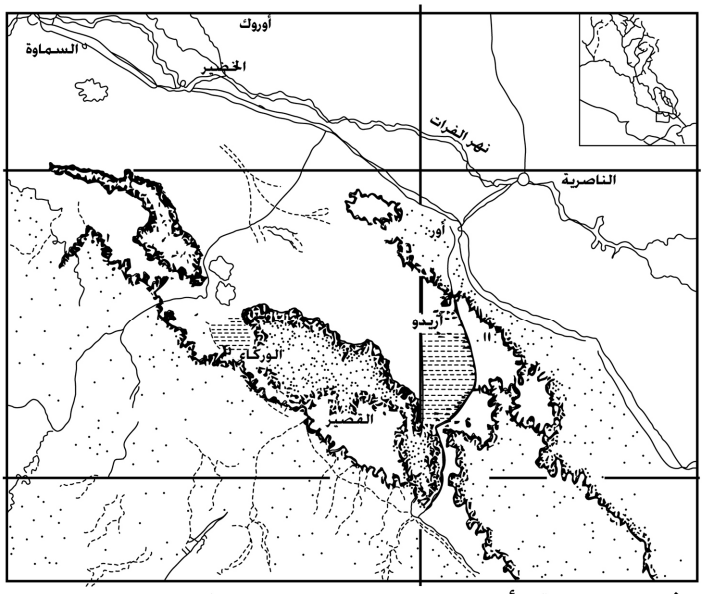

شكل 37: موقع أريدو منخفض عند السهل الجنوبي (safar 1982)

وارتفع موضع أريدو بمرور الزمن، وأصبح تلاً يرتفع عن مستوى سطح الأرض المحيطة به 4.60م وعن مستوى سطح البحر 5.30م، وهو الذي عرف من قبل أبو شهرين الذي تبلغ مساحته 580 540م تقريباً. (شكل رقم 38)[1] مما جعل موضع أريدو المرتفع محمياً بشكل طبيعي، حيث إنه بمنأى عن خطر الغرق عند ارتفاع مناسيب المياه.

1- safe. Opcit p 29.

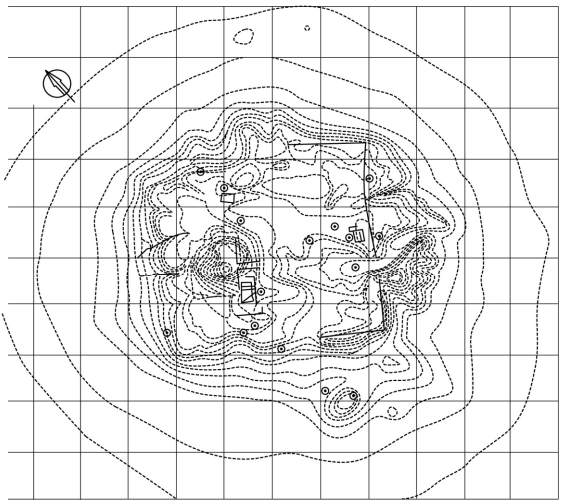

شكل 38: موضع أريدو الأول (تل أبو شهرين) (safar 1982)

إضافة إلى ذلك بدا الموضع منعزلاً عن بقية المستوطنات الأخرى، وهذا ما دفع المستوطنين الأوائل ومن تبعهم إلى إقامة أهم المنشآت الدينية، وأكثرها ارتباطاً بفكر الإنسان ومعتقداته، والتي تمثلت بمجمع أريدو الديني الذي ضم معابد المدينة وزقوراتها المرتفعة نحو 25م فوق مستوى سطح الأرض. كما ضمت المنطقة المقدسة وبعض الأبنية المشيدة في عصر الوركاء التي بلغت مساحتها عند إقامة السور نحو 220 180م وهي ترتفع عما جاورها ما يقرب من 11م.

أما الخاصتين اللتين لم توضحا بشكل دقيق في اختيار موضع أريدو، فهما خاصية التربة الجيولوجية لمنخفض أريدو، ومصدر المياه الحلوة والشائبة فيه. فلقد وجد أن المنخفض الذي يقع فيه موقع مدينة أريدو، والذي يبدأ من جنوب السماوة حالياً لينحدر من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، ويستمر بهذا الامتداد أسفل مدينة أريدو مسافة 20كم مازال يضم مجموعة كبيرة من المستنقعات الفصلية التي شكل وجودها استمراراً للحالة التي كان عليها المنخفض. ولو بحجم أكبر من المستنقعات التي تجمعت مياهها من ارتفاع مناسيب البحر، وفيضانات نهر الفرات. مما زاد الشك في موقع مدينة أريدو. أكان على ضفاف هذا الهور المكون من فيضانات نهر الفرات بشكل مماثل إلى بحر الدبس غرب كربلاء، أم هور الحمار إلى الشرق من سوق الشيوخ الآن، أم أنها كانت تقع على ضفاف البحر مباشرة. فلقد دلت إحدى الوثائق السومرية التي كتبت في زمن شولجي (2033-1988ق.م) ملك أور أن "شولجي بن أور نمو اهتم بمدينة أريدو التي تقع على ضفاف البحر" بغض النظر ما إذا كان البحر صافٍ أو شائب. وهي الحقيقة التي أكدها تومسن (أحد المنقبين الأوائل لمدينة أريدو في

موضع أبو شهرين) وهو يستند إلى حقيقتين الأولى عثوره على كمية كبيرة من الماء الصافي في مناطق مختلفة من أرجاء الموضع مقارنة مع الكميات القليلة من المياه الشائبة التي تأتي من الهور. والحقيقة الثانية هي وجود المعبد الرئيس في أريدو المسمى بمعبد ابسو (أي معبد الإله) محيط بالمياه الصافية "لكلا الحقيقتين بات اعتقاد الجيولوجيين مؤكداً حول وقوع أريدو على البحر[1].

وعلى الرغم من عدم إعداد خرائط توضح مناسيب مياه البحر بالنسبة لموقع أريدو عدا الخارطة التي جمعت معلوماتها عام 1933 ورسمت عام 1940 بقياس 1/ 50000[2]. التي توضح مستويات المناسيب في عدة نقاط داخل المنخفض، والتي دلت على أن الأرض التي تقع على الجنوب الشرقي من موقع أريدو (أبو شهرين) تنحدر حالياً إلى الأسفل قرابة 29 قدم (أي 8.5م) تحت سطح البحر. لذلك ولعدم وجود قطع في الحافة المحيطة بالمنخفض إلا عن طريق فتحة منظومة الحازم التي تقع إلى الغرب من أور، والتي ترتفع حالياً 9 قدم (3م تقريباً) فوق مستوى سطح البحر، وهذا يعني أن البحر لا يتسنى له الدخول عبر هذه الفتحة إلى المنخفض الذي تقع فيه أريدو إلا في موسم الفيضان عندما يصل عنفوان ارتفاعه الأقصى إلى أكثر من 3م. وهذا ما يعتقده معظم الجيولوجيين. أما عن وجود الماء الذي ملأ المنخفض مكوناً بحيرة (أبو) وكان صافياً فلم يكن إلا مصب نهر الفرات في مقدمة الخليج.

غير أن تراجع الخليج عن الارتفاع 3م بعد منتصف الألف الثاني حال دون وصول مياهه إلى المنخفض.

وهذا ما يفسر نشوء مواضع استيطان إلى الشمال من موضع أريدو في عصر الوركاء (3300ق.م تقريباً)، حيث عثر على أبنية لم تعد تهددها المياه. كذلك يفسر كيف أن بعض مواضع المنخفض أصبحت تعاني من طبقات ملحية كثيفة.

وبعد كل هذه الخصائص الموضعية فمن المؤكد أن يتأثر موضع أريدو بالرياح الجنوبية الشرقية التي ما زالت تهب على تلك المناطق متأثرة بالعناصر المناخية لمنطقة البحر. كما ورد ذلك في أسطورة أديا[3]، وهذه دلالة أيضاً على اختيار الفكر التخطيطي لأسلاف السومريين لموقع أريدو على البحر بعناية ودراية لتكون أول مستوطنة أقيمت على البحر وعرفتها الظاهرة الاستيطانية. والتي أدرك السومريون ومن تبعهم محاسن موضعها فاتخذوه مكاناً لمواضع

1- safar op cit p 33 ibid p 33.

٢- خارطة سليمان بسايه التي أعدت لأغراض دائرة الحرب البريطانية.

3- safar. Opci p 33 ibid pp 32-33.

سكنية عرفتها المدينة في فترات لاحقة. ووجدت أثناء التنقيب على شكل روابٍ متناثرة في اتجاهات مختلفة (انظر شكل رقم 39) تمثلت في:

1- الموضع الشمالي (رابية رقم 2 بعد موضع أبو شهرين) الذي يبعد نحو 1كم شمال موقع أبو شهرين بشكل دائري قطره 350م ويرتفع 4.5م عما جاوره. يعود إلى فترة أوروك، واستمر السكن فيه حتى نهاية عصر فجر السلالات عندما كانت مياه البحر ما زالت مرتفعة تقريباً.

2- الموقع الجنوبي (رابية رقم 3) الذي يبعد نحو 2.2كم إلى الجنوب من موضع أبو شهرين ذو شكل بيضوي بلغت أبعاده 300-150م وارتفاعه 2.5م. يعود تاريخ السكن فيه إلى فترة لارسا.

3- الموضع الغربي (رابية رقم 4) الذي يبعد 2.5كم إلى الجنوب الغربي من موضع أبو شهرين بطول 600م وعرض 300م وبامتداد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي عند حافة مجرى مائي عريض من الممكن أن يكون أحد فروع نهر الفرات الذي كان يمتد بالاتجاه نفسه، وقد اندرست معالمه نتيجة امتلائه بالأتربة والرمال التي لم تعد تتميز عما جاورها. يعود تاريخ السكن في هذا الموضع إلى العهد الكاشي.

4- الموضع الجنوبي (رابية رقم 5) وهو موضع استيطاني ذو شكل بيضوي بطول 5م وعرض 30م امتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بواقع قمتين تبعد 2كم عن موضع أبو شهرين يرتفع 3م عما جاوره. ويعود تاريخ الاستيطان فيه إلى العصر الأكدي الذي استمر حتى العصر البابلي.

5- موضع (رابية رقم 6) الذي يقع إلى الجنوب الغربي من أبو شهرين عبر مجرى النهر جنوباً مقابل (رابية 3) ويرتفع 2م عما جاوره.

6- موضع (رابية رقم 7) الذي يقع غرب موضع أبو شهرين عند الممر الذي أقيم لعبور منخفض أريدو إبان الحرب العالمية الثانية.

7- موضع (رابية رقم 8) الذي يبعد نحو 6كم عند شمال غرب موضع أبو شهرين في منخفض مطل على موضع تتجمع فيه مياه المطر، ويعيش عليه البدو في حافة الصحراء في المنطقة المعروفة بالعسلية[1].

١- سفر، فؤاد ولويد "حفريات مديرية الآثار العامة القديمة في أريدو" مجلة سومر مجلد 5 ج 2 1949 ص 161.

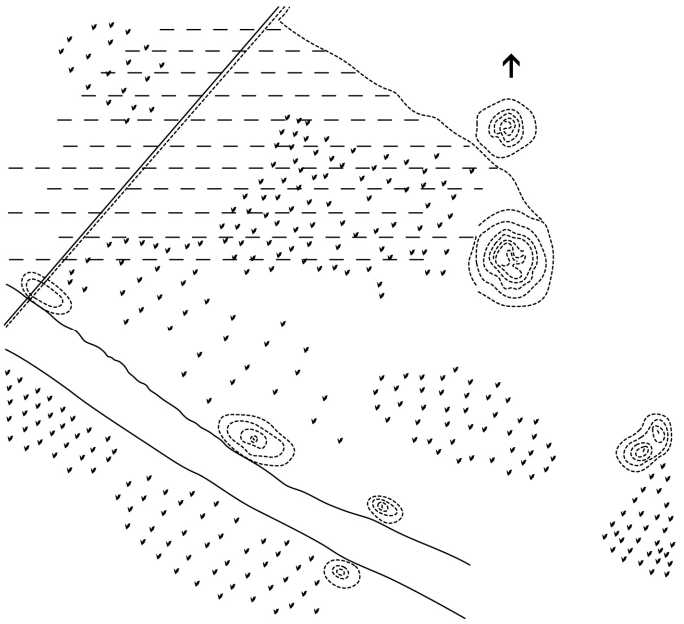

شكل 39: المواضع السكنية اللاحقة في مدينة أريدو (safar 1982)

مما تقدم يبدو أن وقوع أريدو على حافة البحر كان العامل الطبيعي الأكثر مراعاة عند اختيار موضعها قياساً بالمواضع الأخرى التي تناثرت في ذلك الموقع حسب حركة وانسحاب مياه البحر ومجرى نهر الفرات القديم.

أما الخصائص الموقعية لأريدو فقد أتاح المكان الذي اتخذته المدينة قياساً بالأماكن الأخرى من السهل الجنوبي تحقيق ثلاث مهمات إقليمية تمثلت في:

1- إيجاد سبل لمقومات الحياة للإنسان، والحيوان نتيجة وقوع المدينة عند مصادر الماء، والثروة الطبيعية. وفي مقدمتها الهور والبحر، حيث إنهما أماكنٌ للصيد، ثم الأرض الملائمة لممارسة الزراعة وتربية الحيوان.

2- تحقيق الجانب الأمني من خطر الفيضانات التي كانت تكتسح المستوطنات الواقعة أمام سيلها أو التي تقع تحت وطأة مناسيبها. وهذا الأمر ما لم يكن ليتحقق في موقع أريدو نظراً لارتفاع حافة المنخفض الذي تقع فيه أمام ضفة البحر، ولسعة المنخفض الذي اتخذه موقع أريدو، والذي تميز بارتفاعه عن أرض ذلك المنخفض.

3- تحقيق صلات مكانية تراوحت بين منطقة تواجد الصيادين عند حافة البحر، والهور شرقاً وجنوباً، ومناطق تواجد البدو شمالاً وغرباً عند أطراف الصحراء. مما شكل نشاطاً اقتصادياً متبادلاً بين هذين الطرفين، حيث كانت أريدو موضع ومكان ممارسته. إضافة إلى العلاقات الإقليمية مع المراكز الحضرية الأخرى من بلاد سومر كأور والوركاء، وغيرها من المدن التي ظلت تنظر إلى إله الحكمة والمياه (ابسو) في أريدو بكل قداسة، ويتهافت الملوك عبر السلالات

والعصور اللاحقة لإرضائه بتجديد بناء معبده وزقورته[1]. وحتى بعد أن انسحب البحر عن أريدو وتقهقرت مساحتها ولم تعد سوى ذلك الموقع الذي احتلته حارة المعابد والزقورة وبعض الأبنية الأخرى، وقد أحيط بالسور الذي جعل من أريدو مدينة دينية للكهنة والحاشية الدينية العاملة في خدمتهم، ومركزاً دينياً يقصده طلبة العلم، ومركزاً للخدمات الدينية.

ولا تختلف مدينة الوركاء كثيراً في تكوينها وخصائصها الموقعية عن مدينة أريدو. منذ نشوئها كقرية في ذلك الموضع الذي كان يقع على البحر أو على طرف هور كبير. في الوقت الذي كانت فيه مناطق جنوب العراق بطائح مغمورة بالماء الذي أخذ يجف شيئاً فشيئاً سواء بالجهود البشرية أم الطبيعية، فطفقت المياه تتقدم في هذه البقعة منذ أن كانت أرضها غرينية كونتها الترسبات المائية من الهور أو البحر أو بفعل الترسبات التي كان يقذفها نهر الفرات الذي كانت تقع عليه[2]. أما اليوم فإنها تبعد عنه 12كم شرقاً ويبدو موقعها الحالي على شكل بقايا تلال ومرتفعات يبلغ مجموع مساحتها نحو 7كم مربع، وهي توازي مساحة المدينة التي أحيط بها ذلك السور الذي يبلغ طوله 9.5كم ضم بداخله أطلال تلك المدينة الضاربة في القدم، والتي يرجع زمن اختيار موقعها إلى عهد السكن الأول في جنوب العراق إبان أدوار العبيد الأولى وصولاً إلى عهد الوركاء بأدواره الثلاث، حيث شغلت تلك الأدوار الطبقات بين (18-5) لتبدأ معالم الاستيطان الحضري في الطبقات التالية: أي (ط 4) فما فوق حتى الطبقة الأولى التي ميز المنقبون فوقها أنقاض تعود إلى سبعت أدوار تاريخية رئيسة قسموها إلى طبقات ثانوية يبلغ مجموعها (12) طبقة تاريخية أعلاها تلك التي تنتشر فيها الأبنية الفرثية والساسانية وأعمقها تلك الطبقات التاريخية التي تعود إلى العصر الأكدي إذ تعاقب على سكن تلك المستوطنة عدة أقوام بداء بالفراتيين الأوائل الذين

مثل تواجدهم الطبقة (18) لما قبل التاريخ، ثم ظهر اسم خلفهم السومريون مكتوب في ألواح الطبقة الرابعة فما فوق التي ضمتها معابدها وصولاً إلى الطبقة الأولى التي بدأت بعصر فجر السلالات أو ما يسمى بعصر لكش ليتعاقب بعد ذلك سكن الأكديين فالبابليين فالكشيين الذين بنوا فيها المعابد والقصور وكونوا لهم في أوروك حضارة راقية حتى جاء الآشوريون ومن بعدهم الكلدانيون فالفرس الاخمينيون ثم الإغريق السلوقيون والفراتيون الذين عمروا فيها أبنية ضخمة ما زالت بقاياها ظاهرة في كثير من أقسام المدينة والتي تشكل معظم الجوانب المرفولوجية عند سطح المدينة رغم أن السكن استمر فيها حتى صدر العصور الإسلامية فسماها

١- سفر. فؤاد. حفريات مديرية الآثار القديمة من أريدو - مجلة سومر عدد 1 م 3 1947 ص 212.
٢- بصمة - جي. د. فرج - الوركاء - مصدر سابق ص 5-6.

العرب المسلمين بالوركاء بدل اسمها القديم أوروك الذي ورد ذكره في التوراة[1] أما عن موقعها الإقليمي فقد حقق موقعها وسط السهل الجنوبي تلك العظمة والنفوذ الديني والسياسي الذي بات يهيمن على معظم القرى الزراعية التي انتشرت في الأجزاء المحيطة بالمدينة، والتي وصل عددها إلى أكثر من مئة قرية كان معظم سكانها من أولئك المستوطنين الأوائل في القسم الجنوبي من العراق الذين بدأ تحركهم شمالاً من أريدو وأور ومواقع جنوبية أخرى لينضموا إلى قرى الظهير الإقليمي المحيط بالوركاء فكان لها اقتصاداً زراعياً حقق الكفاية إلى درجة الفيض في الإنتاج الزراعي والحيواني الذي صار يذهب للمتاجرة ولا سيما وأن المدينة تقع على نهر الفرات، ويمكن أن تتصل بمدينة أور التجارية ذات الموانئ المتصلة بالبحر ولذا كانت للوركاء بوابة جنوبية تسمى بوابة أور. وقد أهلها موقعها لتكون أكبر المدن السومرية نفوذاً وأقدسها ديناً لذلك كان يلقب حاكمها بالملك logal لعظمته السياسية، وen لنفوذه الديني والسلطوي، وغدا حكامها أسطوريون في عظمتهم أمثال الملك الخامس لسلالتها الأولى جلجامش. وهي المدينة نفسها التي أعادت الهيمنة السومرية إلى الحكم بعد أن سلبه الكوتيوت لتعود الحضارة السومرية من جديد في الوركاء التي سلمت السلطة إلى أور في زمن سلالتها الثالثة.

أما مدينة أور التي استمر موضعها يحتل تلك الرقعة من الأرض التي اختيرت لتكون القرية التي سكنها الفراتيون الأوائل في أدوار العبيد، والذين يعتقد بأنهم السومريون الأوائل الذين استخدموا مبادئ الري الأولى، وطوروا الزراعة التي كانت الأساس للحياة الاقتصادية.

لذلك فإن موضع تلك القرية (التي صارت المدينة المقدسة دينياً والتجارية اقتصادياً) وجد إنه يقع على البحر (الخليج العربي) أولاً وإن اسمها يشير إلى إنها في موقعها هذا كانت أختاً للبحر، حيث أشارت النصوص الكتابية القديمة إلى أن مدينة أور كانت قريبة من البحر، وحتى سلالة أور الثالثة بينما تبعد عنه اليوم أكثر من 200كم كذلك فإن نهر الفرات كان يجري بجوارها من الغرب أما اليوم فتبعد عنه 12كم غرباً (انظر شكل رقم 40) الذي يوضح موقع مدينة أور بالنسبة لنهر الفرات الذي كان يحيطها من الشمال الشرقي عبر أحد القنوات المرتبطة في مجراه القديم، بينما يحيط النهر بالمدينة من الغرب قبل أن يصب بالبحر. وقد اختير موضوعها هذا على البر بجوار النهر على مرتفع النهر فقد اختيرت على

١- بصمة جي - مصدر سابق ص 7.

مرتفع طبيعي تكون بمرور الزمن نتيجة ترسبات فيضان نهر الفرات، إضافة إلى تتبع السكن المتواصل فيها الذي وصل في أعلى حد له إلى ارتفاع 14م ومن أدنى مستوى له 6م[1].

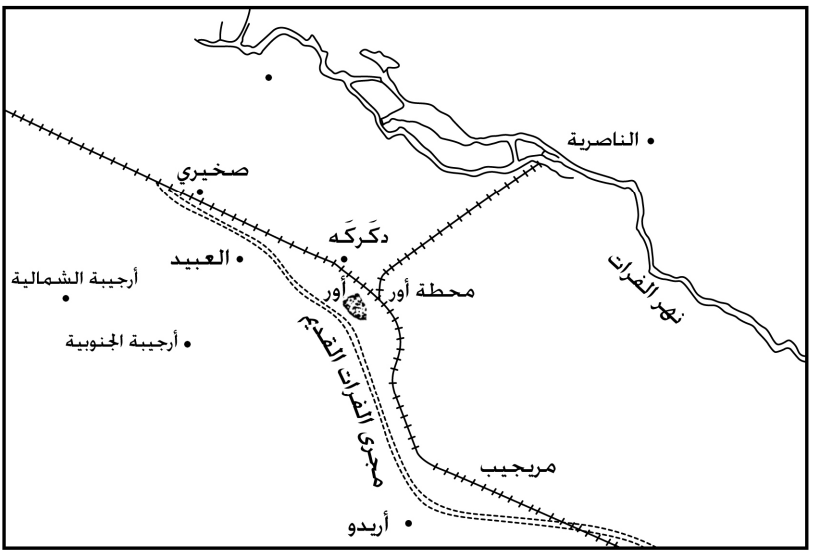

شكل 40: موقع مدينة أور ضمن إقليمها المحيط (الصيواني 1976)

ونتيجة لارتفاع مستوى سطح المدينة عما يجاورها فقد اتخذ من الحواف الخارجية لموضعها حدوداً لبناء سورها الذي صار يفصل موضعها عن باقي أرجاء الموقع الإقليمي الذي اختيرت فيه، وهو الموقع الذي يمثل بداية الامتداد للمنخفض الذي تقع في نهايته أريدو، والذي كان فيه المسار السالك لنهر الفرات المتجه من الشمال نحو الجنوب الشرقي، الذي أجبرته ترسباته المستمرة جراء فيضاناته على أن يغير مجراه مبتعداً عن كل من أور وأريدو نحو الشرق ليصب في ذلك المنخفض المتصل مباشرة بالبحر (هور الحمار حالياً) لذلك كانت المناطق المحصورة بين مجراه القديم والحالي، والذي تتوسطه أور موقع لانتشار عشرات القرى الزراعية التي كانت تحت نفوذ مدينة أور وكانت الظهير المعين الذي يرفدها بالموارد الزراعية والحيوانية كأساس للحياة الاقتصادية قبل أن تتحول تلك المدينة إلى ميناء إقليمي لمنطقة دلتا نهر الفرات، حيث أصبحت مركزاً لتجمع المواد

١- الأعظمي - محمد طه - مصدر سابق ص 207.

الغذائية والتجارية وللتجار الذين يأتون إليها التجار براً ونهراً للمقايضة مع العالم الخارجي. عندها أصبح النشاط التجاري لبلاد سومر لا يقل أهمية عن الزراعة، وتربية الحيوان، فصار فيض منتوجاتها هو المصدر الأول للمواد التجارية، حيث توسع نطاق ومجال الأعمال التجارية لبلاد سومر، فغدت مدينة أور بموقعها المطل على البحر ومرور نهر الفرات المتصل بالبحر أولاً، والمار بمعظم المدن السومرية ثانياً عاملاً لازدهارها تجارياً. إضافة إلى مكانتها الدينية المقدسة التي ظلت مستمرة حتى بعد قيام مدينة بابل. كيف لا وهي مدينة أبينا إبراهيم (عليه السلام) والتي ذكرتها الكتب السماوية المقدسة[1].

ثانياً: خصائص العلاقات الإقليمية والأطاس الاقتصادي في الفكر التخطيطي السومري (تحليل أقاليم المدن السومرية):

من الخصائص التخطيطية التي لا يغفلها علم التخطيط الحضري والإقليمي المعاصر والتي حقق السومريون فيها الريادة الأولى، وجاءت لتكمل الخصائص الموقعية والموضعية التي ميزها الفكر السومري في اختيار مدن الطلائع. هو تحديد شكل العلاقة بين المدن وظهيرها المحيط بها، حتى صارت الأشكال الوظيفية لمدنهم تعكس العلاقة بين الكفاءة الوظيفية للمستوطنات وسعة أقاليمها المحيطة بها، منطلقين من رؤيا تخطيطية صائبة مفادها أن أولى مهمات الإقليم هي إنعاش المدينة وظيفياً، ومدها بالحياة والازدهار، وديمومة العطاء لتؤدي الوظائف التي وجدت من أجلها ضمن إطار العلاقة المتوازنة بين المدينة وإقليمها، والتي تحقق المصلحة المتبادلة بينهما. وعلى الرغم من أن هذه العلاقة أخذت أشكالاً ومستويات مختلفة إلا أن السومريين نجحوا في أن يؤطروا البعد المساحي لمدنهم على أساس وظيفي أخذت عناصره تمتد وتتسع لتغطي مساحة قد تقتصر على مركز المدينة نفسها أو تتسع لتغطي إقليماً، وربما تقهقرت دون المستوى الذي كانت عليه المدينة عندما كانت علاقتها على مستوى معين من مساحة الإقليم الذي وفره موضعها، كما هي مدينة أريدو التي لم تعد مساحتها تتجاوز المنطقة المقدسة التي ظلت تؤديها إلى فترات تاريخية لاحقة بسبب تدهور العلاقات الإقليمية بين مركزها وأطرافها، إذ حصرت المدينة نشاطها الأساسي في أداء الطقوس الكهنوتية.

١- انظر كتابي العهد القديم والجديد سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر والخامس عشر وأعمال الرسل 4-8 من خطية لاسطيفانس.

بينما في مدينة الوركاء فقد أجرى روبرت آدمز[1] دراسة عن العلاقة بين المدينة الأم وظهيرها الإقليمي أي عن الوركاء والمنطقة المجاورة لها، وأشارت إلى أن عدد القرى الصغيرة المحيطة بالمستوطنة الأم الوركاء بلغت 146 مستوطنة في نهاية عصر جمدة نصر، وتناقص عددها ليصل إلى 76 مستوطنة في فترة طلائع المدن وبداية عصر فجر السلالات، بينما أصبح عددها 24 مستوطنة في نهاية عصر فجر السلالات مقابل مدينتين كبيرتين إحداهما الوركاء، ثم أصبحت أربع مدن كبرى في عصر فجر السلالات ثم ثمانية مدن في نهاية ذلك العصر.

وإن دلّ هذا الحدث على شيء فإنما يدل تحول المستوطنات بشكل سريع إلى مراكز حضرية كبرى على حساب القرى الصغيرة والظهير الإقليمي. وبالتأكيد فإن هذا الأمر كان يحصل عبر المراحل التطورية، ومرحلة فرض النفوذ التي جاءت بها مرحلة هيمنة المعبد وسلطته الدنيوية إضافة إلى الدينية التي تتطلب ضم العديد من المستوطنات لحساب المركز الرئيس من أجل مجابهة مستلزمات نموها وعلى الرغم من أن نتائج ذلك العمل تمحض عن نوع من التنافس بين المراكز الرئيسة مثل الوركاء وأور ونفر وكيش وفارة، وأخذ طابعاً آخرَ وهو الطابع الاقتصادي رغم سيادة الطابع الديني الذي اتخذته سلطة المعبد كوسيلة لتحقيق الهيمنة المكانية على المركز والأطراف، وربما تطور ذلك التنافس إلى سلسلة من النزاعات التي توارثتها زعامات دولة المدينة city state في عصر المدن السومرية (عصر السلالات)، والتي كانت في معظم الأحيان تنتهي بالحروب، كالتي حدثت بين مدينتي لكش وأوما (نحو 2400ق.م في عهد سلالة أور نانشه) إلا أن مثل هذا التطور يشير بشكل قاطع إلى أن العلاقات الإقليمية بين المركز والظهير تمثلت في زحف المراكز على حساب ظهيرها الإقليمي في استعمال الأراضي وتبادل عناصر الإنتاج، ومتطلبات الحياة الحضرية باعتبار أن الظهير خير رافد للقوى البشرية، والمواد الأولية، والزراعية، بينما أصبحت المراكز مصنعاً للخدمات الحضرية والضرورية لكلا الجانبين. ويقول آدمز في دراسة لاحقة[2] شملت السهل الرسوبي. إن مؤسسة المعبد في المركز الحضري الأم أشرفت وسيطرت على القرى الزراعية المحيطة بعد أن ظهرت مجموعة من القرى في هذا السهل، وأخذت تمتد شمالاً باتجاه الوركاء التي أصبحت مركزاً رئيساً بين مجموعة من القرى الصغيرة التي كانت

1- adams, r.mcc. "the study of ancient Mesopotamian settlement pattrns and problem of urban origins", summer, 25, 1969, p. 115.

2- adams, r. mcc. "patterns of urbanization," in early sother Mesopotamia", in, msu. 1972. p. 737 ff.

مناطق تموين بالنسبة لها. وهذا ما جعل آدمز عبر مسحه الأثري لمنطقة الوركاء أن يقدر مساحة المدينة وما حولها بـ 400 هكتار وسكانها بين 4-5 ألف نسمة حيث تشير هذه التقديرات على عظمة المدينة، ونفوذها السياسي، وسلطة معابدها الدينية، رغم أن مساحة أي قرية منها لم تكن تتجاوز 10 هكتار، إلا أنها تمتاز بمستوى عال من الكفاءة لم تصل إليها المدينة إلا بعد أن ضمت تلك القرى[1] إليها.

وإن مثل هذه الظاهرة لاحظها آدمز أيضاً في منطقة أور عندما أجرى الدراسة نفسها والمسوحات نفسها في السهل الجنوبي، حيث كانت المناطق الريفية التي تحيط بالمستوطنة الكبيرة تمتد لتصل إلى مسافة 25كم جنوباً عند منطقة مريجيب على مشارف مدينة أريدو و 12كم شمالاً إلى ما يعرف اليوم بالتل الصخري، وإلى ضعف المسافة بينها وبين موقع تل العبيد إلى الغرب والشمال الغربي، حيث موقع مريجيبة الشمالية والجنوبية التي يمكن إدراكها في الخارطة رقم 40" التي تعكس مركز مدينة أور وما جاورها من مواضع قرى الظهير ويشير آدمز إلى أنّ هذا النمط من العلاقات بين المدينة الأم وظهيرها المحيط استمر بالظهور مع امتداد التحرك السكاني شمالاً وظهور عدد من المراكز الرئيسة المهمة مثل الوركاء ونفر. والتي اتسمت بالسعة والكثافة السكانية، وأخذت ما تحتاجه من خدمات وتموين من الريف المحيط بها[2] حيث شكلت الزراعة الأساس الاقتصادي للإقليم (المركز والظهير) إضافة إلى الرعي، وتربية الحيوان. بينما اختصت المدينة بتقديم الخدمات الحضرية والضرورية، مما يعني أن مجتمعات تلك المدن كما هي باقي المدن السومرية الأخرى كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية بالدرجة الأولى على النتاج الزراعي والحيواني، وهذا ما دفع إلى الاهتمام بتطوير وسائل الإنتاج الزراعي ومشاريع الري العملاقة التي اتصفت بها الحضارة السومرية، والتي كانت أبرز رموزها الحضارية المؤثرة في تركيب وسلوك مجتمعها، والتي جعلت منه مجتمعاً يوصف بالنشاط والجد، حيث أظهر ذلك الأمر في تحديه لقساوة البيئة المتمثلة بقلة الماء صيفاً وخطر الفيضانات شتاءً.

وتشير الآثار المادية إلى أن أول قناة إروائية كانت في أريدو حيث وجدت هناك أثار قناة قديمة مندرسة يرجح أنها استعملت عبر مراحل الاستيطان التي تعود إلى الألف الرابع وبداية الألف الثالث[3]، (مع حركة ظهور مدن الطلائع).

وغدت أعمال الري من المهمات الكبرى التي تعتمد على الأعمال الجماعية المشتركة، واستدعى إنجازها وجود مؤسسة تشرف على تنظيم وإدارة تلك

1- adams. R. mcc. 1972 in mus. P. 741.
2- adms, R. mcc. 1969 in summer. P.115.
٣- مهدي، علي محمد - مصدر سابق ص 30.

الأعمال، وتمتلك هيبة ونفوذاً عالياً يمكنها من فرض سيطرتها على المجتمع وتمكنت المجتمعات الزراعية عن طريقها من تصعيد قدرتها على التحكم في بيئتها، واستغلال المزيد من الأراضي الزراعية التي لم تسهم في زيادة العائد الزراعي فحسب، بل في زيادة عدد المستوطنات المحيطة وهذا ما يبرز التنافس الذي كان يحصل بين المدن من أجل توزيع السيطرة والنفوذ كالذي حصل بين الوركاء وأور عندما حاولت الأخيرة باسم حاكمها الأنسي أخذ مركز السيادة والنفوذ من الوركاء التي احتلت في مرحلة سيادة المعبد المرتبة الأولى بين سائر المراكز الاستيطانية في السهل الرسوبي، لذلك ظل حاكمها يستخدم لقب en للدلالة على السلطة الدينية والدنيوية، حيث أصبحت هذه الألقاب تحمل مدلولاً سياسياً يعتمد على اتساع السلطة من الناحية الجغرافية إضافة إلى السلطة الدينية.

لذلك ظل حاكم أور يلقب نفسه بالأنسي، بينما en الوركاء صار يأخذ ألقاباً أخرى مثل اللوكال logal أو غيرها لتشير إلى عظمة سلطته، ونفوذه السياسي والديني[1]. مما يدل على أن سعة الإقليم وعطائه كان ينعكس وظيفياً على تشكيل السلطات الدينية والدنيوية، وبالتالي على الوظائف الاجتماعية والاقتصادية، وقد يكون الإقليم في حالات عديدة عامل لتحجيم المدن سكانياً واقتصادياً وعمرانياً عندما يعجز عن مد مركز المدينة الحضري بعناصر الحياة الاقتصادية والبشرية، أو في حالة عجزه عن خلق وظائف جديدة تشكل أساساً اقتصادياً لتلك المراكز، لذلك تزول مقومات الازدهار والتوسع العمراني للمدينة فيؤدي إلى اضمحلالها، وربما زوالها وهذا ما حصل في بعض المستوطنات كانت أريدو مثالاً لها عندما انكمشت لتصبح مجرد مجمعاً دينياً للممارسة الطقوس الدينية حين ضعف عطاء إقليمها المحيط لمقومات الحياة التي يقف في مقدمتها انسحاب مياه البحر، وعدم التحرك لتوفير البديل له، وقلة مصادر الثروة الطبيعية التي لم تسهم الأنشطة البشرية في تنميتها، إضافة إلى ضعف عامل الهجرة السكانية إلى المدينة نفسها حيث كان السكان ينظرون إلى الشمال عند إقليم مدينة الوركاء ونفر كمحيط لانتشار وتوسع المراكز الاستيطانية، حيث توجد مقومات الحياة الاستيطانية[2] المثلى في تلك المستوطنات حيث أدت سعتها الإقليمية وترامي أطرافها إلى تنامي جهود مجتمعاتها وتطوير سبل حياتها الاقتصادية والاجتماعية التي حققت إبداعات واختراعات جديدة وتقنيات عالية لتطوير مشاريع الري، وتوسيع نظامه. نتج عنها فائضاً زراعياً كبيراً دفع السكان للمتاجرة به. وانعكس ابتكار السفينة التي وجدت مكانها ضمن وسائل وتقنيات تلك المرحلة على زيادة حجم التبادل التجاري، وتوسيع نطاق التخصص الحرفي والمهني المرافق لهذه الممارسات الابتكارية والمبادلات التجارية، حيث كانت العامل الحاسم في ظهور حركة التمدن

١- المصدر نفسه أعلاه ص 145.

٢- مهدي، علي محمد - مصدر سابق ص 170.

urbanization، إضافة إلى دوره في بناء الأساس الاقتصادي للمدن السومرية، الذي لم يعد يقل أهمية عن الأساس الاقتصادي الزراعي الذي انتشر في ظهير المراكز الحضرية.

وأشارت أسطورة (انكي ونظام الكون)[1] إلى المكانة السامية للمعبد، ومكانة الإله انكي نفسه، وما وصلت إليه بلاد سومر من رفاه اقتصادي، ورفعة بين سائر بلدان العالم آنذاك. كما تعكس الأسطورة متطلبات الحياة المادية للمجتمعات السومرية، والمستلزمات الأساسية لفعاليات الإنتاج ولا سيما ما يتعلق بالإنتاج الزراعي والحيواني إلى جانب التأكيد على دور وسائل الإنتاج الأخرى كالإنسان والمعامل وأدوات العمل، لتعرج بعد ذلك إلى أهمية التجارة، وعلاقات بلاد سومر بالبلدان الخارجية. كذلك أشارت النصوص الاقتصادية القديمة التي عثر عليها فلنكشتاين[2] في معبد (أي - انا) بالوركاء إلى أسماء وأرقام المواد الزراعية والكبيرة التي تصل إلى 3600 اسم مما يدل على سعة حجم الاقتصاديات الزراعية في مدينة الوركاء التي ظل نفوذها متعاظماً منذ نشأتها كأول المدن السومرية حتى قيام سلالة أور الثالثة.

أما مدينة أور فكانت مركزاً لتجمع المواد الغذائية والمنسوجات والمصنوعات التي كانت تزيد عن حاجتها وحاجة مدن دلتا النهر كافة إذ كان التجار يأتون إليها نهراً وبراً للمقايضة والتموين فكان هذا أحد عوامل توسعها وشهرتها كمدينة تجارية إضافة إلى قداستها الدينية.

مما يدل على أن اقتصاديات المدن السومرية كانت تعتمد على الزراعة، وتربية الحيوان في قرى الظهير، وعلى نشاط المتاجرة بالفائض الزراعي عبر موانئ مدنها.

تحليل العلاقة بين المدن السومرية وأقاليمها المحيطة "تطابق مع النظريات المعاصرة لتحليل إقليم المدينة"

ينتهي الدكتور عبد الرزاق عباس في معرض سرده للنظريات والمفاهيم والأساليب لتحليل أقاليم المدن إلى حقيقة مفادها: "ضرورة النظر إلى المدينة على أنها مرتبطة بالمناطق التي تحيط بها بعلاقات وظيفية - اقتصادية - اجتماعية - وحضارية متنوعة" بحيث يسهم هذا الارتباط أساساً في بقاءها ونموها. وأسفار اسم المناطق المحيطة بإقليم المدينة[3] city region التي وإن اختلفت التسميات لهذا الإقليم سواء وصفت بمجال التأثير الحضري أو منطقة سوق المدينة أو ركيزة المدينة أو

1- Kramer, s.n. the sumeriens, the history, culture and charectors the univsity of Chicago press press. 1964 pp 4171-183.

٢- مهدي، علي محمد - مصدر سابق ص 167.

٣- حسين، عبد الرزاق عباس - جغرافية المدن - مصدر سابق ص 240.

منطقة خدمة المدينة أو الحقل الحضري urban field إلا أنها تبقى "ظهير المدينة hinter land[1] الذي يتكون في معظم الأحيان من منطقتين هما المنطقة المجاورة للمدينة والتي يسميها الجغرافيون ظاهر المدينة um land وتعني الأرض أو المنطقة المحيطة بالمدينة مباشرة أو المتماسة معها وهي المنطقة التي لا منافس للمنطقة الأم فيها وحتى أن وجدت فهي ضعيفة ومثل تلك المنطقة أسماها كرستالر بالإقليم المتمم.

أما المنطقة الثانية لإقليم المدينة فهي تلك المنطقة التي لها علاقة بالمدينة ولكنها بعيدة عنها لذلك فهي المنطقة غير المجاورة لها أو غير المتماسة معها وهي التي تتعرض فيها المدينة الأم إلى المنافسة بدرجات مختلفة من قبل المراكز الحضرية.

وعليه فإذا ما تم النظر إلى إقليم المدينة السومرية بموجب الفهم السابق من حيث البنية والتركيب رغم افتقارنا إلى المعلومات اللازمة لتحديد أقاليمها[2] يمكن وصف أشكال تلك العلاقات بالآتي:

1- إن نشأة المدن السومرية، ونموها كان يتم في مناطق أقاليمها ذات العمران القروي المأهولة بالسكان المزراعين ثم يبدأ توسعها وزحفها نحو الخارج وتكوين ضواحيها على حساب ضم مساحات من الأراضي الزراعية وتحويلها إلى أراض حضرية. بينما يظهر استعمال الأراضي في الإقليم الظهير (المتمم) فتأخذ أشكالاً أقرب ما تكون إلى استعمال الأرض حول المدينة المعزولة التي جاءت بها نظرية فان ثوفن أو كتلك التي افترضها ابن خلدون[3] كما حصل في الوركاء فنشأت وصارت تسيطر على إقليم واسع يضم عشرات القرى الزراعية التي شخصتها دراسة روبرت آدمز.

2- تقوم المدن السومرية بعد تمركزها بدور فعال في استقبال وإيواء المهاجرين من المناطق الريفية والحضرية الأخرى ضمن إقليمها للإقامة فيها بصورة دائمة لأسباب اقتصادية تتمثل في معظم الأحيان في الحصول على العمل ومتطلبات الحياة الضرورية، ليصبحوا فيما بعد سكان تلك المدن الأصليين كما حصل في أور التي صارت مركزاً تجارياً لمنطقة إقليمية واسعة.

3- على العكس من ذلك فقد وجد أن المدينة السومرية كانت تقوم بالوظائف الآتية اتجاه أقاليمها.

١- يسمي البعض المنطقة الواقعة خلف الميناء بهذا الاسم، وهذا أيضاً يتفق مع حال معظم المدن السومرية ذات الموانئ.

٢- هناك عدة طرق وأساليب لتحديد إقليم المدينة تراجع في كتاب عبد الرزاق عباس - جغرافية المدن ص 242.

٣- راجع كلا المفهومين في كتاب جغرافية المدن لعبد الرزاق عباس ص 242.

أ- إن المدن السومرية ومنها الوركاء وأور وأريدو أصبحت مراكز لتقديم الخدمات الاقتصادية والتجارية والاجتماعية، إضافة إلى الخدمات الدينية التي يطلبها سكان الضواحي والأرياف من مراكز المدن لأن الخدمات الحضرية لا تنتج إلا في مراكز المدن، ولأنها حصيلة تكونيها التاريخي الفريد.

ب- أصبحت معظم المدن السومرية مراكز لتسويق المنتجات الريفية الزراعية والحيوانية، ومواد البناء الأولية سواء لاستهلاك سكان المدن نفسها أو للمتاجرة مع أصقاع أخرى عبر موانئ تلك المدن. ومثل هذا حصل بين الوركاء وأطرافها الإقليمية. وكذلك أور صارت مركزاً تجارياً (ميناء) لمعظم مستوطنات دلتا الفرات في السهل الجنوبي.

المدن السومرية بوصفها أماكن مركزية "أصالة لأولى نظريات المكان المركزي"

إذا كانت خلاصة التحليل للعلاقات بين المدن السومرية وأقاليمها المحيطة قد أعطت الصورة الحقيقة لفهم طبيعة العلاقة بينهما من جهة، وبين ما تقدمه من وظائف من جهة أخرى، فإن مثل هذه العلاقة خضعت في العصر الحديث إلى مجموعة من الدراسات والمفاهيم التي انتهت بصياغة مجموعة من النظريات، أولها كانت نظرية الأماكن المركزية central place theory التي جاء بها الباحث الألماني كرستالر عام 1936 التي أراد بها تفسير مواقع المدن وتوزيعها، وتصنيفها حسب وظائفها، وتحديد علاقتها ببعضها، ومناطق التأثير حولها. وعلى الرغم من محدودية مكان الدراسة التي بدأت بها النظرية، واعتقاد واضعها بأنها يمكن أن تكون إلى جانب نظرية المدينة المعزولة التي وصفها فان ثوفن لتفسير استعمال الأرض حول المدن، وتوزيع مناطق الإنتاج الزراعي[1]. إلا أن المبادئ الرئيسة لهذه النظرية صارت أساساً لكثير من الباحثين من جغرافيين، ومخططين حضريين، وإقليميين، وعلماء الاقتصاد، والاجتماع بعد إدخال بعض التعديلات الضرورية عليها.

وإذ نقف هنا عند بعض بنود هذه النظرية نجد أنَّ السومريين قد حققوا هذه الفرضيات قبل خمسة آلاف سنة وبذلك يكون فضل الريادة والأصالة في فهم المدن كأماكن مركزية وعلاقتها الإقليمية يعود إلى طبيعة العلاقة بين مدن

١- حسين، عبد الرزاق عباس - جغرافية المدن - مصدر سابق ص 266.

السومريين الطلائعية وأقاليمها الظهيرة التي يمكن وصفها حسب بنود نظرية كرستالر بالآتي[1]:

1- إن الصيغة الأساسية للمدن السومرية أنها كانت مراكز للمناطق التي تحيط بها أو أقاليمها من حيث تقديم البضائع والخدمات مقابل الاستفادة من إنتاجها. كما حصل في علاقة الوركاء بإقليمها المحيط ومدينة أور وإقليمها المحيط والعكس صحيح في علاقة أريدو بإقليمها المحيط (ف 1).

2- إن وجود الصفة الأولى (الافتراض الأول حسب نظرية كرستالر) يعني أن كل مدينة سومرية كانت مكاناً يقدم البضائع والخدمات المركزية إلى الإقليم المتمم. والعكس صحيح مما يعني وجود علاقة متبادلة بين المركز والإقليم تشكل ما يعرف بعلاقات إقليم المدينة (ف 7).

3- اتسمت البضائع والخدمات وجميع أنواع الفعاليات التي كانت تقدمها المدن السومرية إلى أقاليمها المحيطة بأنها وظائف أساسية central function فهذه المعابد الرئيسة للآلهة المخصصة لعبادة معينة في الوركاء وأور واريدو وغيرها. وكانت تقدم بشكل مركزي حسب تواجد تلك الآلهة في المدن. إضافة إلى المركز لسياسي للوركاء، والمركز التجاري والحضاري لأور ومركز أريدو الديني (ف 2).

4- أصبح بالإمكان قياس درجة مركزية المدن السومرية كأماكن مركزية بمدى تقديم البضائع، والخدمات الأساسية لأقاليمها أو منطقة تأثيرها. لذلك تباينت مستويات المدن السومرية مركزياً حسب مساحة أقاليمها، ودرجة السيطرة عليها. وكانت الوركاء أولى المدن السومرية وأكثرها مركزية تليها أور ثم أريدو وهكذا باقي المدن (ف 3).

5- يمكن تصنيف المدن السومرية المركز حسب كبر حجمها (مساحتها) وعدد سكانها. وبالتالي مستوى تقديمها للبضائع والخدمات إلى مراتب ومستويات، ولذلك يمكن التأكد مثلاً من صحة الافتراض الثالث لنظرية كرستالر، حيث احتلت الوركاء الدرجة المركزية مع العلم أن مساحتها بلغت نحو 7كم مربع، وكانت تسيطر على أكبر الأقاليم المحيطة، وكان عدد سكانها ما يقرب من 50000 ألف نسمة[2] بينما كانت مساحة أور نحو 2كم مربع، وقدر هنري فرانكفورت سكانها بـ 24000 ألف نسمة[3] (ف 5+ ف 6).

6- لقد وجد أن سعة الإقليم المكمل للمدن السومرية يتناسب مع حجم تلك المدن (ف 1+ف 6) مساحة وسكاناً. كما هو إقليم الوركاء التي احتلت المرتبة الأولى، تليها مدينة أور، وهكذا باقي المدن السومرية (ف 8).

١- حسين، عبد الرزاق عباس - جغرافية المدن - مصدر سابق ص 217-271.

٢- موسوعة المدينة والحياة المدنية - مصدر سابق ج 1 ص 52.

٣- ممفورد، لويس. المدينة على مر العصور - مصدر سابق ص 111.

7- إن وجود المدن السومرية بهذا النمط من التوزيع المركزي مساحة وسكاناً، والموازي لسعة أقاليمها المتممة حولها في نظام هرمي يرتبط به نظام هرمي لأقاليمها المكملة ساهم في جعل المكملة للمراكز ذات التنظيم الحضري الأعلى مسيطرة على الأقاليم المتممة للمدن ذات المستوى الأقل. وهذا ما جعل آدمز يصف حركة السكان بأنها كانت تتجه على الدوام نحو الشمال باتجاه مدينة نفر والوركاء[1]، والتي وصل إقليمها المتمم إلى نحو 400 هكتار[2] مع أن معدل مساحة القرية الزراعية لا يتجاوز 10 هكتار. وبالتأكيد فإن مثل هذه الهيمنة الإقليمية كان يقابلها في المدن السومرية كأماكن مركزية ما يعرف اليوم بمفهوم مدن البضائع المركزية range of central goods الذي يلبي طلبات حد أدنى من السكان threshold population ولا يمكن التعرف عليه بشكل دقيق في المدن السومرية، وإلا لكان بالإمكان إعطاء عدد من المستويات حول هرمية ارتباط المدن المركزية بظهيرها المحيط على الأقل بالنسبة للوركاء وأور وأريدو.

وبهذا تكون المدن السومرية حقاً أماكن مركزية استطاعت أن تعبر في علاقاتها بأقاليمها عن أولى المفاهيم والنظريات الأساسية للمدن بوصفها أماكن مركزية (ف 11).

ثالثاً: البناء الوظيفي (عناصر التكوين الحضري) للمدن السومرية الطلائع functional structure:

تعتبر خاصية البناء الوظيفي للمدن السومرية الأولى من أهم الخصائص التي عبرت عن كفاءة الفكر التخطيطي، إذ استطاعت عناصر التكوين الحضري للمدن السومرية أن تحقق الكفاءة لتلك المستوطنات بدليل بناء تلك العناصر عبر المراحل الحضارية والمورفولوجية اللاحقة، وهذا ما دفع لويس ممفورد للقول: "عندما تبلورت أنظمة المدينة لم يدخل على النموذج الأصلي لها إلا تعديلات قليلة جداً إلى حد يثير الدهشة لعدم حدوث تغير جوهري في عناصر بنائها الوظيفي" والدليل الآخر هو أن تلك العناصر تكاد تكون خاصية مشتركة لجميع المدن السومرية ولا سيما الطلائعية منها. وهي العناصر التي يصفها روبرت آدمز[3] بالآتي:

1- admas. R. m. (1972 opcit in msu p 738).
2- ibid p 739.
3- adams Robert. "patterns of urbanization in early southern Mesopotamia in mso pp 727-737 ff.

1- وجود المباني العامة كالمعابد والأبنية الدينية التي احتلت قلب المدينة، ونالت المستوى الأعلى من الخدمات الحضرية، ومنها كانت تتفرع شبكة الطرق العامة التي اتصفت باتساعها، واستقامتها، بحيث تسمح لحركة العربات التي تصل بين منطقة المعابد وباقي أجزاء المدينة.

2- وجود دور الطبقة الغنية من السكان التي كانت تقع على امتداد الطرق الرئيسة، وتمتاز بسعة مساحتها وتعدد غرفها. بينما كانت دور الطبقة الفقيرة تقع في أحياء خلف الأحياء السكنية للطبقة الغنية بعيداً عن واجهات الطرق العامة الرئيسة التي تقع على جانبي أزقة ضيقة وملتوية اتسمت بصغر مساحتها وقلة عدد غرفها.

3- وجود الميناء (kar) الذي كان يقع عند أبواب المدن المطلة على حافات المياه ليشكل مركزاً تجارياً يؤدي جميع الوظائف التي تقوم بها مدن الموانئ الآن.

4- وجود السور: حيث أحيطت معظم المدن السومرية بالأسوار وربما بالخنادق لحمايتها من هجمات الأعداء من حكام المدن المجاورة والقبائل المتجولة بسبب أطماعهم.

ورغم أن هذه الصفة تمثل الجانب الأمني الذي تبنته المدن السومرية، إلا أنه يعد من العناصر المهمة التي ساهمت في تكوينها الحضري. حيث يشير ليواوبنهايم بأن أسوار المدن في الشرق الأدنى القديم كانت عبارة عن منطقة لتعيين الحدود الفاصلة بين المدينة، والحقول أكثر من أن تكون حصناً دفاعياً. ومع ذلك فقد دلّ بناءها المعماري لها وتخطيطها على أهمية المدينة، وقوتها بشكل كان يثير الزائر أو العدو، ولذلك وضعت الأسوار لحمايتها تحت رعاية الآلهة وسموها بأسماء مطولة وملائمة لمهماتها الدفاعية[1]، وقيمتها الجمالية.

5- منطقة الضواحي: وتقع خارج السور حيث تنتشر الحقول الزراعية، والمراعي والقرى الزراعية كمراكز للاستيطان في الظهير الإقليمي المحيط بالمدينة الأم.

وعلى غرار خصائص التكوين الحضري أو البناء الوظيفي الذي وضحه آدمز للمستوطنات السومرية الطلائعية نجد أن ليواوبنهايم[2] يصف تكوين تلك المدن بموجب عناصر البناء الوظيفي على أنها مكونة من ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: الذي يشمل مركز المدينة القديمة، والذي يسميه بالمدينة الخاصة انطلاقاً من التسمية الأكدية التي تلقب تلك المنطقة (لبي ألي Libi Ali) أو قابلتي ألي Qabalti Ali) والتي تتمثل في الجزء المسور الذي يضم المعابد والقصور ومقرات الموظفين التابعين للبلاط.

١- ليواوبنهايم - مصدر سابق ص 156.

٢- المصدر السابق ص 140.

القسم الثاني: يتمثل بالضواحي التي تكتب بالسومرية (أورو بار را Uru.bar.ra) وتعني خارج المدينة، حيث الحقول، والمزارع والمراعي، وبيوت الفلاحين التي تقابل اليوم الضواحي المعروفة لدينا بـ Suburbas. ورغم عدم وجود معلومات عن الحدود التي كانت تمتد إليها الضواحي، وهل كانت محاطة بأسوار ثانوية؟ أو هل اشتملت على قواعد أمامية محصنة؟ إلا أن مثل هذه الحالة أشارت إليها النصوص القديمة ومنها مصطلح كيدانو Kidanu[1].

القسم الثالث: لمكونات المدينة هو الميناء Kar الذي كانت تقع فيه المخازن وخانات المسافرين والتجار وكان محاطاً بسكن التجار. وقد كانت موانئ المدن السومرية هي المدخل الرئيس لها ومنه تتفرع طرق المواصلات، ولذلك كانت بوابات المدن عند الموانئ. ويلحظ في هذا التصنيف أن يصور المدينة على أنها مكونة من شطرين يشكل السور الحد الفاصل بينهما حيث:

1- شطر داخل السور يمثل مركز المدينة وبنيتها الأساسية.

2- شطر عند أو خارج السور يمثل الميناء ثم الضواحي.

إلا أن الدكتور سعيد[2] يضع تصنيفاً أدق وأشمل يصوره الشكل رقم (41أ) الذي يصف عناصر البناء الوظيفي في المدن السومرية على أنها مكونة أيضاً من ثلاثة أقسام تمثل العناصر الوظيفية في المدينة مستعبداً الضواحي باعتبارها تقع خارج قشرة المدينة التي يمثلها السور. لذلك برزت عناصر التكوين الحضري لديه بالآتي:

1- النواة الحضرية (التي يمثلها القصر والمعبد).

2- النسيج الحضري (الأحياء السكنية وكافة المرافق التي تشكل معالم التكوين الحضري الأخرى غير المركزية).

3- القشرة الخارجية: التي يمثلها السور والخنادق المحيطة به ولعل الشكل (41ب) يمكن أن ينقل الصورة الحضرية للمدينة السومرية الأولى.

١- المصدر السابق 156.

٢- سعيد. مؤيد - موسوعة حضارة العراق - مصدر سابق ج 3 - ص 324.

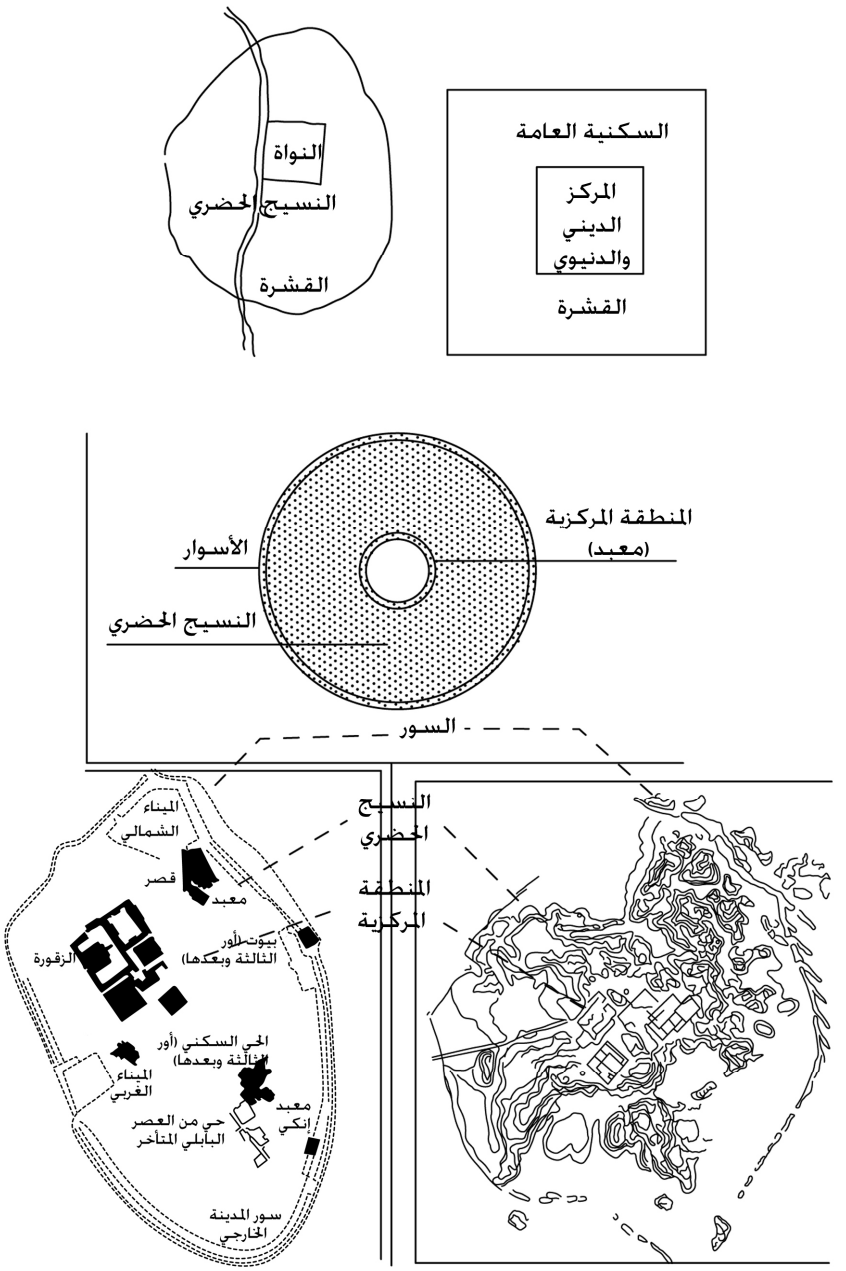

شكل 41: عناصر الصورة الحضرية للمدينة العراقية القديمة (مؤيد سعيد 1985)

وهكذا فإن كلاً من أوبنهايم والدكتور مؤيد سعيد قد اتفقا على ضم بعض العناصر التي جاء بها آدمز حول خصائص البناء الوظيفي للمدن السومرية الأولى، غير أن الأخير ميز بعض العناصر الحضرية ضمن

النسيج الحضري كالمنطقة السكنية، والميناء، إضافة إلى وجود المنطقة المركزية (النواة الحضرية) والسور. أما الضواحي فهي الظهير الذي لا يمكن للمدينة العيش من دونه. وهكذا صارت تلك التقسيمات أمراً متفق عليه لدى جميع الآراء وبالفعل إذا ما أمعنا النظر في مخططات النماذج الثلاثة المختارة للمدن السومرية (أور - الوركاء - أريدو) فإننا سنلمس صحة وجود عناصر البناء الوظيفي التي اختطها الفكر السومري كأحد خصائصه التي أثبتت كفاءته في البناء الوظيفي لهذه المدن والذي يمكن ملاحظته من خاصية عناصر البناء الوظيفي للمدينة السومرية، ومقارنته بالمفاهيم المعاصرة لهذه الخاصية يمكن استخلاص ما يلي:

1- وجود خاصية التطبيق الوظيفي functional zoning: حيث برزت ضمن المدينة مناطق تخصص كل منها بأداء وظيفة معينة فهذه المنطقة الدينية، والإدارية التي ضمت أبنية المعابد، والمرافق التابعة لها، والتي احتلت المنطقة المركزية فشكلت النواة الحضرية.

ثم المنطقة التجارية عند الميناء، والتي ضمت أبنية المخازن التجارية وورش صناعة السفن، والخدمات المقدمة لها ومواقف العربات وخدماتها، إضافة إلى مساكن إيواء التجار. ثم مناطق الوظيفة السكنية التي احتلت جوانب الطرق العامة على طول امتدادها بالنسبة للطبقة الفنية وتقع خلفها دور الطبقة الفقيرة. كذلك منطقة الأسوار وأبراجها المعبرة عن الوظيفة الدفاعية. بينما شكلت الحقول الزراعية والمراعي المنطقة الخارجة عن السور وتقع خلفها الصحاري حيث يتجول الرعاة.

2- وجود خاصية الشكل العمراني المعبر عن الوظيفة، والتي تمكنت فنون البناء والحضارة السومرية من عكسها بشكل جلي، فصارت هناك عمارة المعابد والدور السكنية والقصور والخنادق والأسوار.

3- وجوده ميزه التخصص الوظيفي functional specialization: للمدن أي التمايز بين المدن على أساس وظيفي. فهذه مدينة أريدو التي كانت توصف بالمدينة الدينية، وأوروك المدينة السياسية، وأور المدينة التجارية رغم احتوائها جميعاً على الوظيفة الدينية. وباقي العناصر الحضرية إلا أن الوظيفة الأساسية لهذه المدن جعلها تتميز عن سواها من المدن السومرية.

رابعاً: الخصائص المورفولوجية للمدن السومرية الطلائع:

إذا كانت عناصر البناء الوظيفي والمكونات الحضرية للمدن السومرية الأولى تبدو وكأنها كتلة من المنشآت، فإنها لم تكن كذلك بقدر ما هي مركب يتكون من وظائف تتشابك مع بعضها البعض، وتتفاعل دائماً فيما بينها، وإنّ وجود السور الذي يفصلها عن ظهيرها المحيط بها لم يجعلها بمعزل عن مؤثراته الإقليمية

(البشرية والطبيعية) بل كان الشطرين الخارجي والداخلي يشكلان قطبي رحة تتفاعل بينها العناصر الوظيفية وإذا تم التطرق إلى عناصر البناء الوظيفي في المدن السومرية فإن فاعلية الأداء الوظيفي لا يمكن قياس كفاءتها بمعزل عن الشكل البنائي والمعماري لتلك العناصر حسب موقعها ضمن النسيج الحضري، والذي يوحي كيف أن الفكر السومري استطاع المزج بين الوظيفة (التي تحققها عناصر التكوين الحضري) وبين الشكل (المعبر عن كفاءة الأداء الوظيفي)، وهذا ما يعرف اليوم بمورفولوجية المدينة urban mophologe. والتي وإن لم يدركها العقل السومري نظرياً إلا أنه جسدها عملياً إيماناً منه بأن وجود الإنسان في المدينة يوجب المزاوجة بينه وبين المكان (فنتجت الوظيفة) وبين وجوده ووحدات الفضاءات المبنية أو المكشوفة (فنتج الشكل). وهذه الرؤيا تشكل اليوم المقومات النظرية لعلم المورفولوجية الذي يقوم على أساس ربط الوظيفة مع الشكل (شكل رقم 42). ولفهم النظرية المورفولوجية للمدن السومرية town scape يجب العودة إلى التحليل المورفولوجي الذي يظهر عن طريقه تصميم المدن السومرية ويتضمن ثلاثة عناصر[1] هي:

1- خطة المدينة السومرية town plan.
2- خطة العمارة للمدينة السومرية building fabric.
3- استعمال الأرض في المدن السومرية land use.

"خطط المدن السومرية وأصالة أولى نظريات التحليل الداخلي للمدن"

إن ما نعنيه بخطط المدن السومرية town plan هو التحليل الداخلي لها الذي يفسر استعمال الأرض فيها، ويبحث العلاقات المختلفة بين هذه الاستعمالات، والتوصل إلى العوامل التي ساهمت في تشكيل التركيب الداخلي وعملية نموها.

فإذا كانت خاصية البناء الوظيفي ضمن مواقع تلك المدن قد وضحت بعضاً من خططها، وتركيبها الداخلي، فإننا نذكر بكل اعتزاز أصالة الفكر العراقي السومري الذي تولدت عنه أولى نظريات التحليل الداخلي للمدن، فهذه نظرية الدوائر المركزية conceen zone theory التي توصل إليها الباحث الاجتماعي ارنست برجس Ernest. W. burges عام 1920 بعد دراسة مستفيضة لمدينة شيكاغو الأمريكية، واعتبر استنتاجه هذا ممكن التطبيق على جميع المدن، ولا سيما الكبيرة منها. فإذا ما قبلنا بهذا الجزم الذي تقبلته واستندت إليه الكثير من الأوساط

١- الأشعب. خالص حسني "مجموعة محاضرات ألقيت على طلبة الدكتوراه في مركز التخطيط والإقليمي" - جامعة بغداد 1995.

الأجنبية والعربية وصارت هذه النظرية تدرس اليوم في أقسام الجغرافية، والاجتماع والعمارة، وتخطيط المدن، فإن هذه النظرية ولدت وبتطبيق فعال في المدن السومرية قبل خمسة آلاف سنة. حيث توصل برجس إلى حقيقة أن النمو الحضري urban growth يحدث بصورة موحدة من المركز إلى جميع الجهات مع أن الظواهر الطوبوغرافية التي توجد في موضع المدينة كالأنهار والتلال والمستنقعات تشوه هذه العملية، إلا أن البنية الداخلية للمدينة، وتوسعها نحو الأطراف يمكن أن يقوم على أساس تمييز خمسة مناطق دائرية الشكل تحيط الواحدة بالأخرى، بحيث تتدرج في الاتساع من الداخل إلى الخارج. وإن هذه المناطق تختلف في اتساعها الذي قد يتراوح بين ميل أو أكثر. وتتميز الواحدة عن الأخرى من حيث استعمال الأرض والناحية الاجتماعية والخصائص العامة. وهذه المناطق هي:

1- المنطقة المركزية (c. b. d): وهي المنطقة التي وصفها برجس على أنها تمثل قلب المدينة، وبؤرة الفعاليات الاجتماعية، والاقتصادية (كالمؤسسات التجارية والبنوك ومخازن تجارة الفرد)، وتلتقي عندها طرق المواصلات. وهي ذاتها المنطقة المركزية التي يحتلها في المدن السومرية المعبد، ومرافقه الاقتصادية من ورش (للصناعة والنحت والبناء) ومخازن للمواد الغذائية والتجارية، إضافة إلى المرافق الاجتماعية التي تمثل سلطة المعبد الدينية، ومؤسساته التشريعية، والتعليمية، ومرافق أدواته التنفيذية، فما أقرب وصف واسم لتلك المنطقة التي أسميناها بالمنطقة المركزية في المدن السومرية مع تلك التي أسماها برجس بالاسم نفسه في المدن المعاصرة والكبيرة.

2- المنطقة الانتقالية: وهي المنطقة المحيطة بالمنطقة المركزية والتي اعتبر برجس أنها تجمع بين صفات المنطقة المركزية والمنطقة التالية لها، وتصبح بمرور الزمن، وبعد تقهقرها عرضة لنمو المنطقة المركزية ومؤسساتها التجارية. فمن المؤكد أن مثل تلك المنطقة كانت في المدن السومرية موضعاً لتوسيع مرافق المعبد وحاشيته. التي لم تظهر بشكل متميز في المدن السومرية لأنها ضمن النسيج الحضري المحيط بالمنطقة المركزية.

3- المنطقة السكن الراقية: وهي المنطقة التي يسكنها في المدن المعاصرة الطبقة المتوسطة من السكان كأصحاب الأموال التجارية الصغيرة والمهنيين، والتي تقابلها في المدن السومرية الطبقة الغنية من الملاك والتابعين للمعبد.

4- منطقة سكن العمال: وهي المنطقة التي يعيش فيها السكان العاملين في المناطق التجارية ليكونوا قريبين من أعمالهم، وهي المنطقة التي تقابل سكن الطبقة العامة والفقراء في المدن السومرية.

غير أن ترتيب السكن في المدن السومرية في كلا المنطقتين الثالثة والرابعة جاء بشكل معكوس لترتيب النظرية التي تصف المنطقة السكنية للعمال قبل منطقة السكن الراقية. بينما ضمت المدن السومرية طبقة السكن للأغنياء قبل طبقة السكن الفقراء لتبقى صلة الأغنياء والمنفذين قريبة من المعبد، ولتتصدر دورهم الراقية واجهات الطرق العامة بينما تقبع خلفها دور العامة والفقراء.

أما المدن الحديثة فإنها تبقي على سكن العمال قريباً من المنطقة التجارية والانتقالية لكي لا يتحملوا كلف النقل والسكن الباهظ.

بينما يبتعد السكن الراقي عن تلك المناطق، وهذه مسألة عصرية منطقية لترتيب المنطقتين التي كان لها حضورهما في المدن السومرية.

5- منطقة الضواحي: وهي المنطقة التي تقع خارج حدود المدينة والتي احتلت النطاق الأول للظهير المحيط بالمدينة سواء السومرية أو المعاصرة، وإن اختلف نوع السكن والساكنين فيها اليوم عن أولئك الذين كانوا يسكنوها في المدن السومرية.

وهكذا يبدو الحضور الفعال لمناطق التحليل الداخلي للمدن المعاصرة وفق نظرية برجس وكأنها محاكاة simulation لتحليل وتركيب المدن السومرية مع اختفاء المسحة المعاصرة للنشاط الاقتصادي والوظيفة السكنية لطبقات المقيمين في المدن المعاصرة قياساً بمستوى النشاط والمقيمين في المدن السومرية.

وإذا كانت نظرية الدوائر المركزية تصف التحليل الداخلي للمدن بالشكل رقم (42- أ) فإن التحليل الداخلي للمدن السومرية وصفه بعرض مطابق لصورة الشكل رقم (43- ب) الذي يظهر عبره أن خطة المدينة تبدو وكأنها مجموعة من الأجزاء، وعناصر البناء الوظيفي الحضري المتفاعلة

في تصميم المدينة، والتي ترتبط معاً في المكان space بنظام رئيس يتكامل عن طريق:

1- نظام الشوارع street system.

2- نظام أو نمط القطع plot pattern.

3- نظام الأبنية building arrangement.

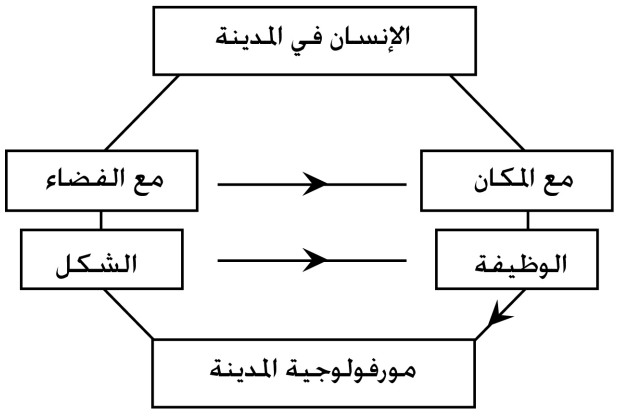

شكل 42: الوظيفة والشكل لتكوين الصورة المورفولوجية للمدن السومرية

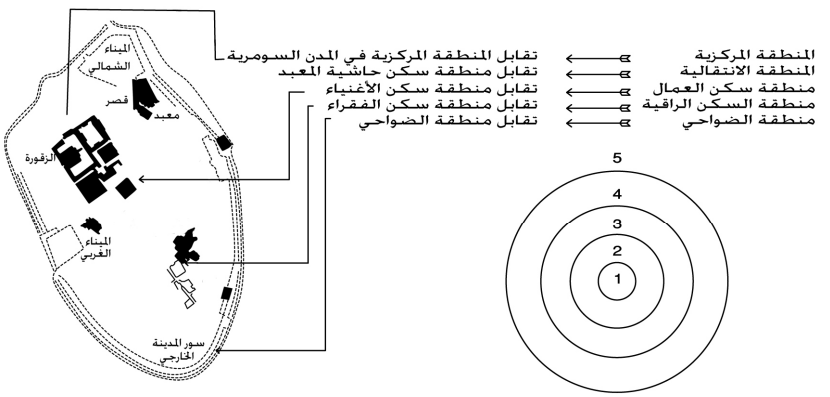

شكل 43: نظرية الدوائر لبرجس وتطابقها مع التركيب الداخلي للمدن السومرية

ولما كانت خاصية البناء الوظيفي وفهم خطط المدن السومرية قد أظهر أهم عناصر التكوين الحضري لها واستعمالات الأرض كبعدين أوليين للفهم المورفولوجي (تصميم المدينة)، فإن عناصر الخطة (نظام الأبنية، القطع،

الشوارع) ممكن فهمه أثناء استعراض وفهم النسيج الحضري ومحاور الحركة في تلك المدن.

النسيج الحضري ومحاور الحركة في المدن السومرية: (ظهور نظام الأبنية والشوارع والقطع):

أظهرت خطط المدن السومرية أن بناءها يتألف معظمه من عناصر، ومكونات النسيج الحضري الذي يمتد بين النواة المركزية والأسوار.

وقد احتلت المنطقة السكنية معظم مناطق هذا النسيج وتوزع الأحياء السكنية تبعاً للتقسيم الطبقي للمجتمع فصار سكن الطبقة الغنية يحيط بالمنطقة المركزية حين تقوم الأحياء الفقيرة بالامتداد حلفها باتجاه الأسوار وقد أظهرت التنقيبات أيضاً أن بيوتاً ذات حجم متوسط مشيدة وفق المخطط التقليدي نفسه قد وجدت بين البيوت التي تسكنها الطبقة الفقيرة والمنطقة المركزية.

وفي كل الحالات فقد ظهرت الأحياء السكنية في المدن السومرية الطلائعية بشكل نسيج عضوي ذو تخطيط غير منتظم irregular layout كالذي ظهر في مدينة أور في القسم الجنوبي الشرقي منها (شكل رقم 44).

والذي يمكن عن طريقه دراسة بعض خواص النسيج الحضري للمدينة، ونظام شوارعها، حيث يظهر من مخطط القطاع السكني[1] أنه يشمل نظام السكن والشوارع.

فبالنسبة للنظام السكني أظهر المخطط تجمع الوحدات السكنية ذات الفناءات الداخلية بشكل متراص، وكثيف غير منتظم يتخلله توزيع للأزقة والشوارع، وقد ألف هذا التجمع تشكيلات بنائية للوحدات السكنية والأزقة تمثل ما يعرف اليوم بنظام الأحياء السكنية التي تشكلت حسب المخطط نتيجة التقاء أكثر الأزقة في نقاط مركزية، كما في التقاء الشوارع عند الساحات الحديثة (الفلك) مع وجود نقطة مركزية تتصل عندها معظم الوحدات البنائية مع بضعها. وقد أطلق (وولي) أسماء معينة لهذه الوحدات وشوارعها[2]، أما التفصيل البنائي لوحدات البناء السكني فسيتم تناوله في عمارة الوظيفة السكنية.

١- الذي يعود إلى فترة ايسن ولارسا (2025-1763ق.م)

٢- الصيواني - شاه محمد علي - أور بين الماضي والحاضر - مدير الآثار العامة - بغداد 1976 ص 52.

شكل 44: مقطع لحي سكني من أور (فترة أيس ولارسا) (الصيواني 1976)

أما بالنسبة لنظام الشوارع فقد تميزت الشوارع بالاتجاهية والاتساع مع وجود الممرات ذات الانحناءات الحادة، وإن بعض تلك الشوارع تنعطف إلى مناطق خارجية خربة أولها الحقول والبساتين والساحات الخالية[1] التي ساد وجودها في معظم المدن السومرية ويعود وجودها إلى التغيرات في كثافة السكان، وعدم استقرار الإقامة عبر قرون عديدة من تاريخ المدينة فصارت الشوارع في أور حسب ذلك المخطط على ثلاثة أنواع:

1- الشوارع الرئيسة العريضة.

2- الشوارع الثانوية.

3- الشوارع غير النافذة التي تشبه اليوم ما يعرف بـ chi-de-sac، إضافة إلى وجود الشوارع غير المنتظمة المرتبطة بشارع أو أكثر من الشوارع الرئيسة، والتي تمثل شرايين الحركة الرئيسة التي تربط بوابات المدينة بمركزها من جهة، وبصفة النهر من جهة أخرى. وهي تسمح بمرور العربة كوساطة نقل رئيسة في حين تكون الشوارع الضيقة المستعرضة بشكل عمودي على شرايين الحركة الرئيسة وتنتهي مسارات الحركة الضيقة (الأزقة) بالنوع الثالث من الطرق المعروفة بـ chi-de-sac التي تشكل القطاعات PLOTS السكنية الصغيرة أو الكبيرة. وتكون جدران المساكن ذات زوايا انسيبابية دائرية لتسهل حركة المرور فتمتد صفوف المساكن ذات الواجهات الموحدة على طول الشارع، بينما توضع بعض المزارات الشعبية الصغيرة في التقاطعات[2] وعند الشوارع الوسطية كتلك الوحدة البنائية التي وجدها وولي في الشارع الوسطي الذي اسماه (شارع الصلاة)[3]، والتي كانت تختلف عن غيرها لسعتها وكثرة غرفها، وتعدد ساحاتها، وطبيعة تشييدها، ومواد بنائها فاعتقد أنها مكان مقدس لشخصية مرموقة في مدينة أور، كأن تكون لسيدنا إبراهيم الخليل. ومثل تلك الظاهرة كانت منتشرة في المدن العربية إلى وقت قريب ومنها بغداد.

وعلى الرغم من وجود الانحرافات البسيطة في زوايا الشوارع التي نتجت بسبب التجاوزات المستمرة، إلا أنها غير محسوسة بالنسبة للمارة بالقدر الذي

١- راضي، وعد "العمارة العمرانية القديمة في حضارة وادي الرافدين السومرية والبابلية والآشورية" رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لمجلس كلية الهندسة - قسم العمارة جامعة بغداد 1990 ص 32.

٢- راضي، وعد - مصدر سابق ص 33.

٣- الصيواني - مصدر سابق ص 53.

تظهر عليه هذه الانحرافات في صورة المخطط، حيث تبدو الشوارع منظمة، وكان لمبدأ الخط المستقيم دوراً أساسياً في التشكيل المعماري لواجهات البيوت التي تمتد بصفوف منتظمة على طول الشوارع في ذلك النسيج ليبرز صورة التكوين الحضري، ومحاور الحركة في المدن السومرية الذي توارثته عن المراحل المورفولوجية السابقة في مدنها الطلائعية.

النسيج المعماري للمناطق الوظيفية من المدن السومرية الطلائعية:

ونقصد به الأشكال المعمارية للمناطق الوظيفية التي ضمها تركيب المدن السومرية المتمثلة في:

1- الوظيفة الدينية وأنماطها العمرانية (العمارة الدينية)

2- الوظيفة السكنية وأنماطها العمرانية (العمارة السكنية).

3- الوظيفة الأمنية وعمارة التحصينات (العمارة العسكرية)

وفيما يلي وصف للأنماط العمرانية لهذه الوظائف:

الوظيفة الدينية وعمارة المعابد:

على الرغم من أن المنطق المورفولوجي يحتم إعطاء الأولوية للوصف الوظيفي على الشكل المعبر عن كفاءة الأداء. إلا أن الطبيعة المادية (المعمارية) للأبنية الدينية التي خلفتها الأعمال التنقيبية في مدن أريدو والوركاء وأور كسائر المدن السومرية المنقب بها، هي التي قادت إلى المضامين الفكرية، والاعتقادية للوظيفة الدينية لذلك سيتم إعطاء الوصف البنائي للأشكال المعمارية ومخططاتها الأرضية ليصبح الاستنتاج والتحليل الوظيفي الذي قادت إليه تلك الأشكال، والهياكل المعمارية مقبولاً لا سيما وأن بناء المعابد في المستوطنات السومرية اتصف بالديناميكية المورفولوجية (التغير المستمر في الشكل المعبر عن الوظيفة) وبشكل جعله متميز دائماً منذ أن بدأ بغرفة بسيطة وصولاً إلى البناء الزقوري الضخم في شكل، وسعة حجمه، وتعدد تشكيلاته، ومرافقة البنائية، حيث حظيت الأشكال المعمارية المعبرة عن الوظيفة الدينية بدرجة كبيرة من الأهمية تجسدت في إنتاج تلك الأشكال ذات الإبداعات الفنية التي عبرت عن سمو العمارة الدينية في بلاد وادي الرافدين. مما يدل على دقة في التخطيط لأداء الوظيفة الدينية، وبراعة في إنجاز الشكل المعماري المعبر عن مستوى فاعلية الأداء الوظيفي لا سيما وأنها أنجزت في حقبة زمنية مبكرة من الحضارة العراقية القديمة. ومع ذلك فعندما يكون المطلوب وصف عناصر الوظيفة الدينية وأشكالها المعمارية في المدن السومرية بشكل عام والطلائعية بشكل خاص فإن ذلك يقود إلى نوعين من الأبنية الدينية هما:

أولاً: عمارة المعابد الأرضية.
ثانياً: عمارة المعابد المرتفعة (المدرجة أو الزرقوية).

عمارة المعابد الأرضية:

وهي تلك الأبنية التي لازمت المستوطنات السومرية منذ نشأتها الأولى وصارت مناطقها أهم لبنات البناء الوظيفي فيها، والتي ميزتها عن قرى الشمال تلك التي امتد الاستيطان فيها لأكثر من 4 آلاف سنة. ولم تشهد مثل تلك الأبنية الموجودة في السهل الجنوبي دليلاً على التغير في السلوك الاعتقادي والفكر الديني. فلقد دلت التنقيبات الأثرية في قرى السهل الجنوبي على وجود تلك الأبنية التي أشار بناؤها على أنها خصصت لأغراض دينية حيث أوجدتها الأصول الفكرية للمعتقدات الدينية التي لازمت أدوار عصر العبيد، وتطورت عبرها عمارة المعابد بالشكل الذي كان يزيد من هيبتها ومكانتها المقدسة في حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى الناحية الدينية.

وبتجاوزنا لأشكال المعابد في القرى السومرية التي كانت بدايتها في الطبقات السفلى لأريدو، فقد تعذر على المنقبين اكتشاف وتحديد معالم الطبقات (5-1) التي تقابل دور الوركاء، والأطوار التالية لها حتى فجر السلالات لوقوعها تحت بناء الزقورة، وبالتالي لم يظهر من معالم معابد العصور التاريخية، وما سبقها من الدور شبه الكتابي إلا بقايا قليلة قادت إلى تحديد مخططات أضلاعها بعد المعبد السادس (شكل رقم 45). وبذلك يعتقد أن الملك بورسن أو أحد الملكين اللذين سبقاه في الحكم زمن سلالة أور الثالثة قد أزالا بقايا المعابد ولم يبق سوى سطحها عند بناء الزقورة، إذ وجد أنه لا يفصل بين المعبد السادس والزقورة إلا قليلاً من لبن مصطبة المعبد الخامس[1]، وساهمت العوامل الطبيعية في تعريته وإزالة بقاياه[2].

١- كشفت البعثة الألمانية العاملة في الوركاء أثناء تنقيباتها الأخيرة عند أسفل البناء الحجري الواقع إلى الشمال الغربي من زقورة أنو عن هذين المعبدين اللذين يعودان إلى دور العبيد الرابع، وكان قسما من بناء المعبد الثاني راقداً أسفل البناء الحجري يليه المعبد الأول (أطروحة علي محمد مهدي ص 72).

٢- سفر، فؤاد - حفريات مديرة الآثار العامة القديمة - مجلة سومر 3 بغداد 1947 ص 227.

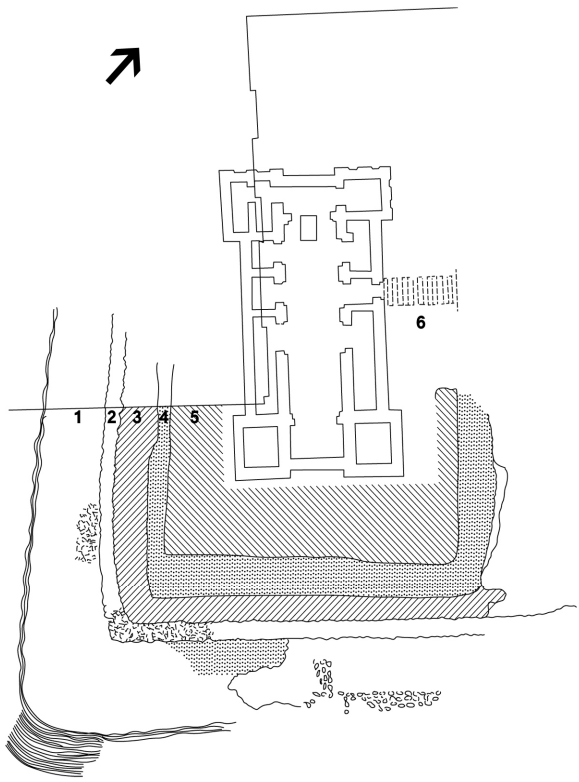

شـــكل 45: أريدو- معبد الطبقة السادسة والبقايا التي تحته من معابد أريدو اللاحقة (مهدي 1975)

أما في مدينة الوركاء، وإذا تجاوزنا أولى معابدها (الأول والثاني) التي تعود إلى دور العبيد الرابع، وكذلك معابد طور أوروك القديم والوسيط[1] (معابد الطبقتين 7-6 في منطقة (أي - انا) الذي يوضح مخططها (الشكل 46) فإن الهياكل المعمارية للمعابد الحضرية لمدينة الوركاء تبدأ بالطبقات (5-4) وتتوزع على حارتين هما: حارة (أي - انا) وحارة (أنو كولاب).

١- قسم علماء الآثار عصر الوركاء إلى ثلاثة أطوار: تمثيل الطبقات (12-8) طور الوركاء القديم ويقابلها الطبقات (5-4) من أريدو وطور الوركاء الوسيط وتقابل الطبقات (3-2) من أريدو وتمثل الطبقات (5-4) طور الوركاء الأخير، وتقابل ط 1 من أريدو (وللمزيد من المعلومات عن مخططات وعمارة المعابد من تلك الطبقات راجع أطروحة علي مهدي ص 46).

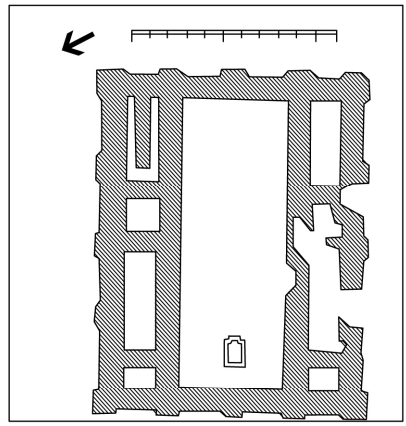

المعبد الثاني من أوروك في دور العبيد

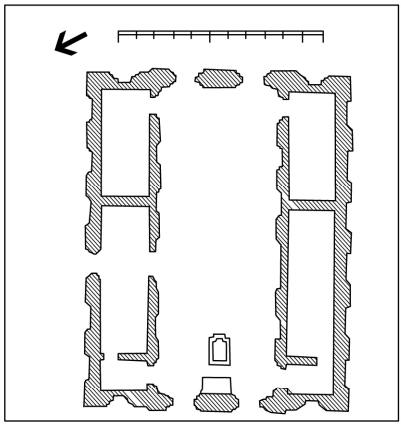

المعبد الأول من أوروك في دور العبيد

شكل 46: معبدين كشفتها البعثة الألمانية أثناء تنقيباتها الأخيرة في الوركاء عند أسفل البناء الحجري الواقع إلى الشمال في آنو الواحد تلو الآخر 2-1 ويقابلان فترة المعبد الآخر (ربيض الشرقي) الواقع في أحد ضواحي الوركاء. (مهدي 1975).

1- معابد الطبقة الخامسة (من حارة أي - انا):

تعد بقايا معبد الحجر الكلسي من أهم المخلفات البنائية الظاهرة عن أولى الأدوار الحضارية لمدينة الوركاء التي بدأت في تلك الحارة. حيث تشير مخططات هذا المعبد الموضحة في (الشكل رقم 47) إلى بداعة ما وصل إليه فن التخطيط ورقي العمارة، ففي هذا المعبد الذي كشفت التنقيبات الأثرية عن بقايا أسسه المشيدة بحجر الكلس وربما كان كامل بناء مرافقه مشيدة بهذا النوع من الحجر، حيث لم يظهر ما يشير إلى استخدام اللبن في أبنية الطبقة الخامسة بينما كانت كذلك في الطبقات (4 ب) لذلك وصف اسمه في الطبقة الخامسة بالمعبد الكلسي، وإضافة إلى هذه الميزة البنائية فهنالك مؤشرات تخطيطية اتصف بها بناء حيث:

- تظهر مخططات هذا المعبد كما في سائر المعابد السومرية الاتجاه نفسه إلى الجهات الأربع كدليل على الهيمنة الكوتية.

- تظهر المخططات الأرضية للمعبد إلى أنه كان مؤلفاً من مجموعة من المرافق الدينية تمثلت بـ:

أ- القسم المركزي ذو الشكل المستطيل بلغت أبعاده 30-76 تتوسطه صالة على شكل حرف T أبعادها 62-11م تمثل الفناء الداخلي للمعبد، وعلى جوانبها اصطفت أربع غرف يحتوي بعضها على سلالم.

وكان الوصول إلى هذه الصالة يتم بوساطة مداخل من الغرف الجانبية (عدا غرف السلالم) وفي منتصف الضلع الشمالي الشرقي وعند نهاية الصالة على الذراع الأفقي للحرف T تقوم خلوة المعبد، وقد خصصت لها غرفة وسطية

لها مدخل رئيس من الصالة إضافة إلى مدخل من كل جانب[1].

ب - المصاطب: وهو ذلك الجزء الذي يقع إلى الجنوب الغربي من معبد الحجر الكلسي، وتبدو على قسمين المصطبة الجنوبية الشرقية التي يقوم عليها المعبد (ب في الشكل 47) والمصطبة الشمالية الشرقية التي تقوم عليها صالة الأعمدة (ج في الشكل 47) ويوجد بين هاتين المصطبتين ساحة تقوم على مصطبة أقل ارتفاعاً بنحو 2م عنهما، يدل وجودها على أنه كان بعد المصطبة صالة الأعمدة. وجميع هذه المصاطب المشيدة من اللبن تعود إلى فترة الطبقة الخامسة رغم أنها استغلت في أبنية الدورين c-b من الطبقة الرابعة الذين سبقا دور الطبقة الرابعة a[2].

ج- كانت الواجهات الخارجية للمعبد وكذلك الجدران المطلة على الصالة السطحية مزودة بمرتفعات تحصر بينها كوات منسقة باتت تشكل تزيينات بنائية لتلك الواجهات.

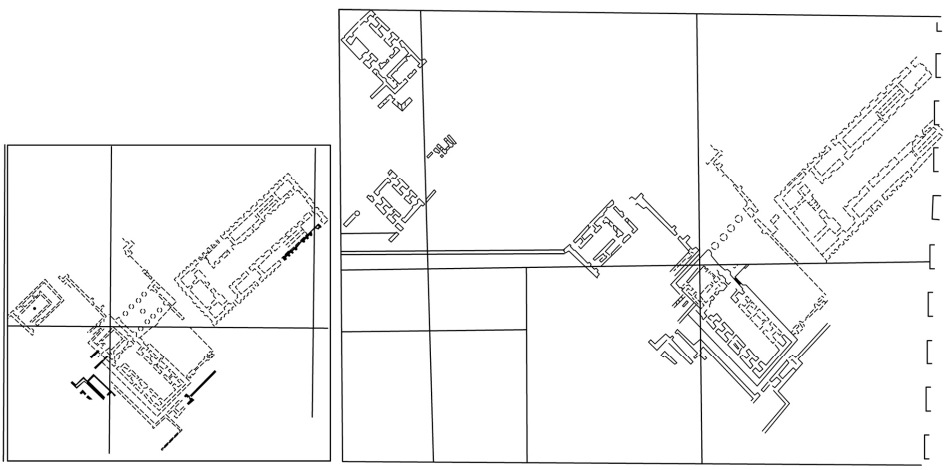

شكل 47: إمارة (أي- انا) الطبقة الخامسة - الرابعة (راضي 1989)

2- معابد الطبقة الرابعة من حارة (أي - انا):

ضمت الطبقة الرابعة تشكيلات بنائية مهمة تشير إلى اتساع نطاق أبنية المعبد لتشتمل على حارة مقدسة جللت بالمناظر الجميلة بفضل ما وصلت إليه عمارتها من إبداعات فنية، وتزيينات زخرفية راقية خاصة في الدورين (b وa) على غرار الطبقة الخامسة من هذه الحارة. ضمت الطبقة الرابعة b:

١- مهدي، علي محمد - مصدر سابق - ص 78 f .uvbxxi. P. 16

٢- المصدر السابق. ص 79 عن f .ibid iv. P. 12

أ- المعبد الرئيس a (ب في الشكل 47) حيث يشير مخططه إلى أنّ زواياه كانت تتجه نحو الجهات الرئيسة الأربع أيضاً وإنه ثلاثي التقسيم بشكل مشابه لمعبد الحجر الكلسي سوى أنه أصغر حجماً منه، فقد أصبح عرض الصالة الوسطية 8م يتم الدخول إليها من مداخل الغرف الجانبية المتعامدة علينا. وعلى الرغم من عدم وضوح مكان الخلوة وما ويليها من مرافق تلك التي ارتبطت بصالة الأعمدة لزوال الجانب الشمالي الغربي من المعبد كما هو شأن الجانب الجنوبي الشرقي الذي تدل بعض بقاياه على أنها تعود لمرافق بنائية ذات علاقة بالمعبد وتعود إلى الدور نفسه ولكنه من المفترض أن تكون خلوة ذلك المعبد تشبه نظيرتها في المعبد الكلسي[1].

ب- صالة الأعمدة: حيث تقوم على المصطبة الشمالية الغربية، والتي تحمل مخططاتها في تصميمها وزينتها كل معاني الفن المعماري الراقي الذي عرفته الحضارة السومرية في فجرها المبكر. فصالة الأعمدة هذه كانت في تخطيها مستطيلة الشكل يقوم فيها صفان متوازيان من الأعمدة في كل منها أربع أعمدة وسطية استوائية الشكل، قطر كل منها 2.62م، إضافة إلى عمودين كل منهما نصف استوائي يقعان على الجدار الشمالي بشكل متعاشق متناسق معه وبموازاة الصفين السابقين من الأعمدة (ج في الشكل 47)، ويعتقد أن هناك زوج آخر من الجهة المقابلة، وقد وجد أن هذه الأعمدة مزدانة بحلية فسيفسائية مؤلفة من مجموعة كبيرة من المخاريط الفخارية متعددة الألوان (شكل 48 ب). أما مدخل الصالة فقد نفذ عبر جدارها الشمالي الشرقي الذي يعتقد بوجود ما يناظره في الجانب الآخر.

كذلك يعتقد عبر الدلائل المعمارية بأن الجانب الجنوبي الشرقي للصالة ربما كان واجهة للمصطبة الشمالية الغربية، التي تقوم عليها هذه الصالة، وكان يرتقى إليها بوساطة سلمين جانبيين في مقدمة وسطية بارزة (الشكل رقم 48 أ)، إضافة إلى وجود سلم عند كل من الزاويتين الشمالية والغربية لفناء المصطبة الوسطية يؤديان إلى مصطبة خالية من الأعمدة، وقد بدا جدار السلم مزين بحلية معمارية قوامها أعمدة نصف اسطوانية متعشقة مع الجدار ومزينة بمخاريط فسيفسائية من الألوان السابقة نفسها، كونت ألواناً ونقوشاً متعددة. أما في الجدار المقابل لجدار السلم الشمالي فقد ظهرت جدران متعامدة تغطيها في بعض النقاط

١- مهدي، علي محمد - مصدر سابق ص 80 عن 5-6 .uvbvi pp.

بقايا جدران من اللبن، يعتقد أنها بقايا لمرافق بنائية ترتبط بالصالة من هذه الجهة[1].

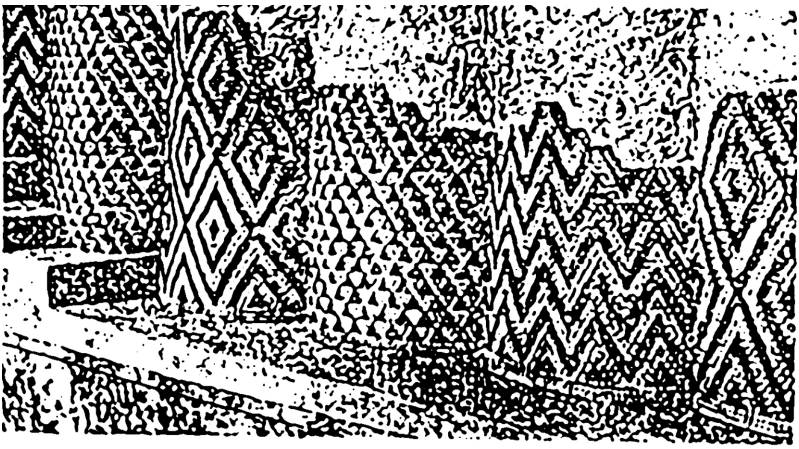

شكل 48: المخاريط التي زينت أعمدة صالة الأعمدة في معابد الطبقة الرابعة في الوركاء (ستن لويد 1980)

ج- ساحة المصطبة الوسطية: وهي تلك الساحة القائمة على المصطبة الوسطية (د في الشكل 47) بين المصطبتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية ذات شكل مستطيل، ولها مداخل مزورة (مائلة bent)، وقد ظهرت الجدران المحيطة بهذه الساحة ومزينة بمرتفعات معمارية تحصر بينها مداخل مزينة بمخاريط فسيفسائية ملونة، وربما كانت مثل هذه الزينة تعتلي معظم الواجهات المطلة على الساحة على غرار واجهة مصطبة صالة الأعمدة.

د- مجموعة المعابد الأخرى ويقصد بها تلك المعابد التي يمثلها المعبد b(هـ في الشكل 47) وإلى الشمال الغربي منه يقع معبد f (وفي الشكل 47) التي تشير مخططاتها الأرضية إلى أنها مستطيلة الشكل وذات تقسيم ثلاثي[2] تشغل الصالة معظم مساحة ذلك التقسيم وتتجه زواياه الأربع إلى الجهات الكونية الرئيسة، كما وتخلو جدرانها من المرتفعات المعمارية عدا بعض الكوات في إحدى الغرف.

أما الطبقة الرابعة (iva) فقد ضمت مجموعة من المعابد شملت:

1- المعبد c: الذي يوضح مخططه (الشكل رقم 49 أ) وهو يشبه تقريباً معبد الحجر الكلسي في ط 5 ومعبد f في الطبقة الرابعة b باستثناء بعض التفاصيل[3].

١- مهدي، مصدر سابق - ص 81 عن ibed. V. p. p. 12-17 & v p. 6.

٢- يقصد بالمعبد ذي التقسيم الثلاثي ذلك الممتد طولياً وينقسم على نفسه داخلياً بثلاثة أقسام متوازية يكون القسم الوسطي منها القاعة الرئيسة للتعبد، وعلى جانبيها القسمان الآخران المقطعان إلى غرف.

٣- للاطلاع عليها راجع أطروحة علي محمد مهدي - مصدر سابق - ص 84، وكذلك تفاصيل المعبد d و e والمعبد الأحمر ص 111.

2- المعبد d: هو ذلك المعبد الذي يشير مخططه (في الشكل 48 ب) وقد أقيم على مصطبة جديدة غطت أجزاءً كبيرة من مصاطب الطبقة الرابعة b(ivb)، وقد شيد بتخطيط أرضي مستطيل وثلاثي بلغت مساحته بعد إكمال شكله المقترح نحو 55-80م، واستدل من البقايا المستظهرة لهذا المعبد أنه يمثل أرقى ما وصل إليه الفن المعماري في الأبنية الدينية لما حواه من ريازة رفيعة، وتجليات معمارية، وإبداعات فنية ركزت بعناية فائقة لإضفاء النواحي الجمالية على مظهره الخارجي[1].

3- المعبد e الذي يقع بموازاة الضلع الجنوبي الغربي من المعبد c وهو قريب الشبه من المعبد c من حيث التخطيط الأرضي، واتجاه الزوايا سوى أن جداره الخارجي يتألف من سلسلة من المرتفعات تقترب إلى هيئة أنصاف أعمدة، أما الجدار الداخلي المطل على الصالة المركزية فمزين بمرتفعات بينها مداخل متتالية. (انظر الشكل 49- ج).

4- المعبد الأحمر: وهو مجموعة بقايا ما عثر عليه من المخلفات البنائية لعدد من المرافق والجدران التي تقع على امتداد المعبد d من الجهة الشمالية الشرقية، والتي يوصفها الشكل (49 د). حيث أسماه المنقبون بالمعبد الأحمر نسبة إلى الطلاء الطيني الأحمر الذي يكسي الجدار.

5- مخلفات بنائية أخرى: وهي من بين المظاهر البنائية الأخرى التي عثر عليها في ط 4 (ivd) ذات صفات وخصائص تخطيطية ومعمارية تختلف عن الخصائص المميزة لأبنية المعابد. وقد شكلت ثلاث أبنية منها موضوعة بشكل متناسق، حيث تحيط بفسحة كبيرة تمثل مساحة وسطية بينهما اعتبرت على درجة كبيرة من الأهمية لخصائصها التخطيطية والمعمارية ضمن حارة (أي - انا) وهذه الأبنية هي:

أ- صالة الدعائم: تلك التي يشكل بناؤها أسلوباً جديداً يعكس نموذجاً أخر لتطور فن العمارة والريازة في بلاد وادي الرافدين، وعلى الرغم من أنها لا تختلف كثيراً عن بناء صالة الأعمدة في الطبقة ivb (الشكل 49 هـ) إلا أن تلك الصالة استخدم في بنائها الدعامات بدل من الأعمدة، حيث تم تشييدها من صفين متوازيين من الدعامات على جانبين طويلين مع وجود دعامة مربعة بين كل زوج

١- مهدي، علي محمد. مصدر سابق ص 85 عن uvb, vi, p.p 19-23.

من دعامات الصفين. ويوجد بين الدعامات فراغات تشكل مداخل متعددة إلى القاعة من جميع الجوانب.

وقد استخدمت الدعامات لتكوين هيكل القاعة من جهة ولتسهيل عملية التسقيف عن طريق إقامة العقود الأقبية سواء باستعمال الآجر أو حزم من القصب، حيث وجدت بقاياه قرب بناء الصالة مما يدل على استعماله في تسقيفها. وإضافة إلى هذا الفن الرازي الرائع في التسقيف فقد أبت مبالغة الفنان والمعماري العراقي القديم إلا أن تدخل تلك المرتفعات والمداخل في بناء تلك الصالة، حيث حوت الدعامات على تزيينات معمارية تتألف من مرتفعات تحصر بينها مداخل ازدانت واجهاتها بلمسات فسيفسائية مؤلفة من مخاريط ملونة حمراء وصفراء وسوداء أكسبتها حلة يندر وجودها في يومنا هذا[1].

ب- صالة الأقبية: وهي الصالة التي جاء بناؤها بتخطيط ذو تقسيم ثلاثي (شكل 49) تتألف من صالة وسطية طويلة، وعلى جانبها صف من التقسيمات البنائية الملساء من الداخل وذات تجويف من الخارج، ويشكل كل تجويف ضمن التقسيم الواحد ما يشبه الغرفة. وبالتالي باتت هذه التقسيمات تشكل من الخارج سلسلة من الغرف تصطف على طول الأضلاع الجانبية لبناء تلك الصالة التي تنتهي جبهتها الأمامية بدعامة ملساء وتنتهي الجهة الثانية بوحدات بنائية عرفت بالحمامات[2] تضم صالة وسطية صغيرة مع مجموعة من القاعات والمرافق وقد زينت جدرانها المطلة على القاعة الكبيرة بسلسلة من المرتفعات والمداخل.

ج- بناء المسرح: وهو بناء تقع إلى الجنوب الغربي من البناء السابق لصالة الدعائم وصالة الأقبية ذو شكل مستطيل جداره الشمالي الشرقي ذو تجويف يشبه جدار صالة الأقبية، ولكنه صغير ومتصل، وباقي الجدران ملساء ومتداخلة، ولم يعرف بالتحديد وظيفة ذلك البناء فاصطلح عليها اسم المسرح (شكل 49 ز) التي يصفها لنزن[3] بأنها كانت قاعة للاجتماعات.

6- ومن المعابد الأخرى التي تقابل الطبقتين الخامسة والرابعة في (أي - انا) رغم أنها لا تقع في تلك الحارة: هو معبد الفسيفساء أو معبد المخاريط الحجرية الذي وجدت إثارة عند الزاوية القريبة من سور حارة (أي - أنا) قرب منطقة زقورة، ومعبد آنو في الحارة الثانية من مدينة الوركاء تلك المسماة كولاب، وكان وجوده ممتد على طبقتين أثريتين المعبد الأول مقابل الطبقة الخامسة لحارة (أي - أنا) والثانية تقابل (ط 4) الذي يشير تخطيطه (شكل رقم 49 م) وهو مستطيل الشكل أبعاده 29-19.5م يتألف من صالة مركزية على جانبيها صف من الغرف، وفي نهاية الصالة تقع الخلوة.

١- مهدي، علي محمد. مصدر سابق ص 87 عن uvb, xxii, p. 13 ff

٢- المصدر السابق. ص 89 عن ibid, xxiii, p. 28.

٣- مهدي، علي محمد. مصدر سابق ص 89 عن ibid, xvii, p. 7f.

تمتاز جدران هذا المعبد المبنية بحجر الكلس بسمكها وطلائها بالجص، وقد طعمت بمخاريط صخرية بدت فسيفسائية ملونة بالأحمر والأسود. وتحيط بهذا المعبد ساحة فسيحة محاطة من جهتها الجنوبية الشرقية، والجنوبية الغربية بسور مشيد من اللبن المقوى من الداخل بدعامات مطعمة بمخاريط فخارية فسيفسائية ملونة أيضاً[1].

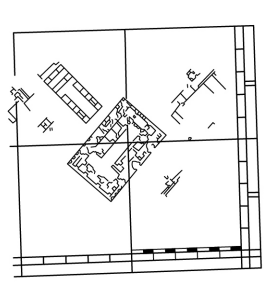

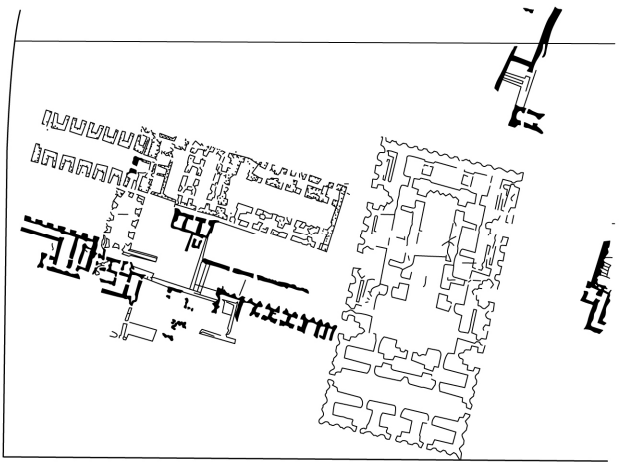

شكل 49: الوركاء- معابد الطبقة الرابعة أ- 17A من حارة أي- انا (مهدي 1975).

3- معابد الطبقة الثالثة لمدينة الوركاء:

على الرغم من أن معابد هذه الطبقة تعود إلى دور جمدة نصر من العصر شبه الكتابي، إلا أنها تمثل الشكل والفن المعماري التالي للوظيفة الدينية عند المجتمعات الحضرية التي بدأت في مدينة الوركاء عبر طبقتيها (5 و 4)، وقد توزعت معابد هذه الفترة على حارتي الوركاء، (أي - أنا) والحارة الثانية التي عرفت باسم كولاب. ولذلك سيكون وصف عمارة المعابد في ط 3 من الوركاء مقسم على حارتين هما:

1- معبد حارة أي انا ط 3: ونقصد بذلك معبد الدور (a من ط 3 لحارة أي - أنا) في الوركاء التي تعود إلى دور جمدة نصر، حيث إن المخلفات الأثرية للدورين b و c لا توحي بوجود أبنية لمعابد على تلك المصطبة المرتفعة التي مثلت الدور c رغم ما انتظم حولها من أبنية لمنشآت، ومرافق احتوت على تغيرات ساهم تراكمها في توسيع المصطبة، وازدياد ارتفاعها إلى المستوى الذي بدت عنده زقورة أور نمو من عصر سلالة أور الثالثة. لذلك لم يرَ أي أثر لمعبد على تلك المنصة التي أسماها لنزن بالحارة المقدسة للآلهة أنانا (عشتار في البابلية)، واقتصر وضوح

١- المصدر السابق ص 90 عن ibid. ix. P.8 & vx. P. 8 ff.

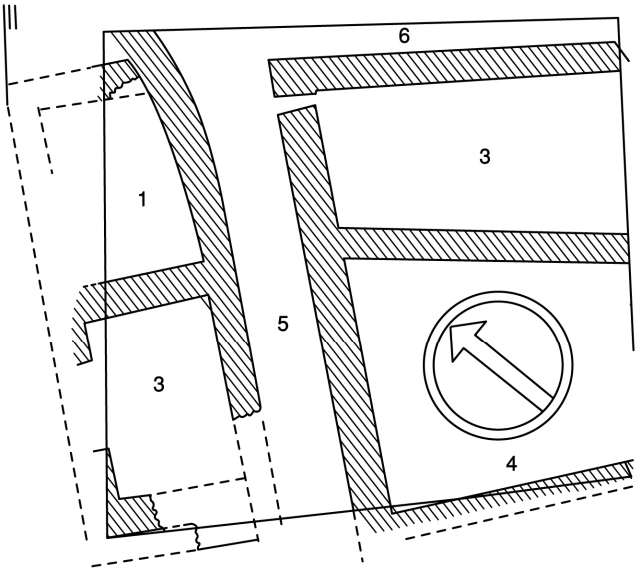

شـــكل 56- أ: مخطط أرضي للطبقة الخامســة في حفرة الأكواخ (مجلة سومر ج5 1949)

المخلفات البنائية على ثلاثة أبنية تقع إلى الجنوب الغربي من المصطبة تعود إلى (ط a 3) التي اعتقد المنقبون أنها تمثل معبد تلك الطبقة (شكل 50) الذي ضم[1]:

أ- مدخل لبوابة واسعة تواجه الضلع الغربي تقوم عليها حافة الزقورة.

ب- بقايا جدارين مزدوجين كانا يحيطان بالأبنية الدينية.

ج- بناء ثالث ذو تخطيط غير مألوف أطلق عليه المنقبون تسمية بناية الممرات: وهي تتألف من سبع غرف ترتبط فيما بينها بممرات مداخلها باتجاه المصطبة وتوجد ساحة تفصل هذه البناية عن المدخل.

2- معبد آنو (المعبد البيض): ويقع في الحارة الثانية من الوركاء (كولاب)، حيث يقوم على مصطبة عالية جداً بلغ ارتفاعها 13م فوق مستوى السهل المحيط بها على مساحة 70-66م، حيث بنيت فوق أنقاض معابد لفترات سابقة، وقد مثل تطور عمارتها بداية لنوع من الزقورات المصطبية كمرحلة ممهدة لقيام المعابد العالية (معابد الأبراج) لذلك أطلق على مصطبة آنو اسم زقورة آنو[2]. حيث ينسب معبدها وزقورته إلى الإله آنو سيد السماء، وقد زينت واجهات تلك المصطبة بدعائم بينها كوة يعلوها تدعيمات مشيدة من صفوف من الجرار، ربما حلت محل التزيينات الفسيفسائية التي وصفت في معابد اي انا وربما لتصريف المياه من على ظهر المصطبة التي يرقى إليها بوساطة سلم عرضه 2.5م بموازاة الضلع الشمالي الشرقي، ويستمر بالصعود إما بالسلم نفسه أو بوساطة سلم يحيط بسطح الزقورة. وكانت بجواره فسحة تستخدم للارتقاء أيضاً (الشكل 51) أما المعبد المقام عليها فقد تميز بناؤه بالفخامة وفق تخطيط أرضي مستطيل بأبعاد 17.5×22.30م مؤلف من صالة وسطية على امتداد طول المعبد سميكة ومزينة من

١- مهدي، مصدر سابق. ص 99 عن uvb, vii, p.p. 9-12 & uvb, vii. P.p. 13.

٢- المصدر السابق ص 94 عن ibid viii p.p, 29-35.

الخارج بطلمات متدرجة تحصر بينها (مداخل). يتم الدخول إلى الصالة عبر دكة القرابين وفي نهايتها تقع خلوة المعبد، حيث تقع دكة مستطيلة الشكل ملتصقة بالضلع الشمالي الغربي، هذا عن عمارة معابد الوركاء.

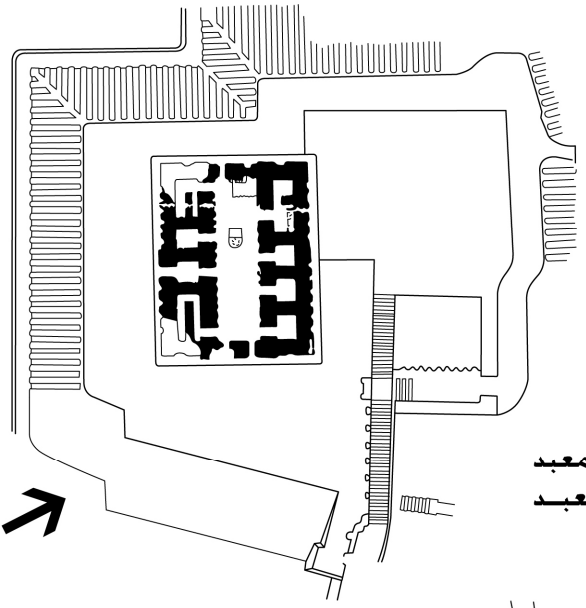

شكل 51: الوركاء- معبد وزقورة آنو (المعبد الأبيض)

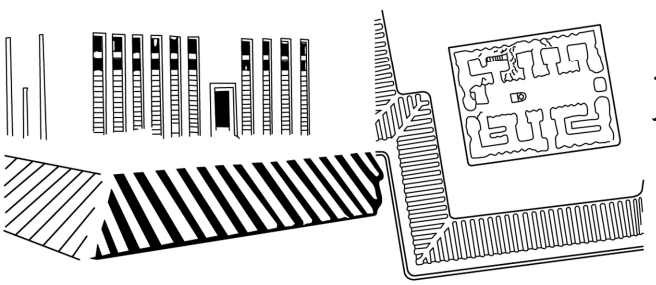

إعادة بناء ومخطط للمعبد الأبيض في الوركاء- أواخر الألف الرابع قبل الميلاد

أما في مدينة أور التي عرفت منطقتها المركزية بحي المعابد (أو الحي المقدس)، والتي احتلت قلب المدينة (شكل 52) فإن الأشكال المعمارية لعناصر الوظيفة الدينية ظلت ولفترات متأخرة تعكس مدى التطور الذي حظيت به فنون العمارة الدينية، واستمرار الترابط الفكري لماضي الحضارة السومرية بصلاتها مع الحضارات اللاحقة[1].

١- للمزيد من المعلومات عن الأشكال المعمارية في هذا الحي والمعالم الأخرى لمدينة أور ومراحل وتطوير الحي المقدس راجع - الصيواني - مصدر سابق ص 56-19.

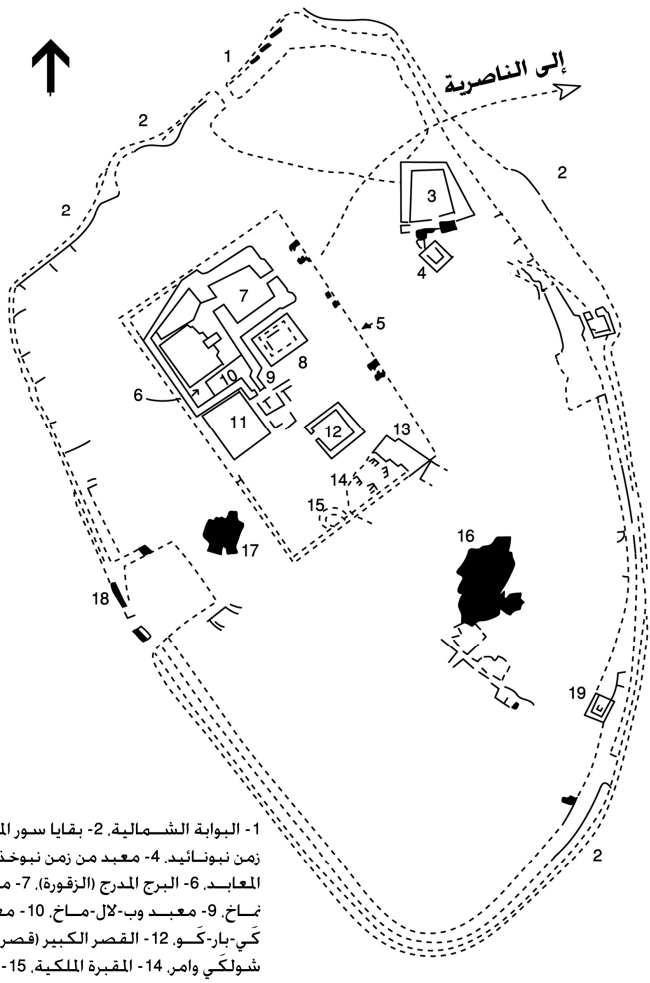

1- البوابة الشمالية. 2- بقايا سور المدينة. 3- قصر من زمن نبونائيد. 4- معبد من زمن نبوخذنصر. 5- سور حي المعابد. 6- البرج المدرج (الزقورة). 7- معبد ننار. 8- معبد نماخ. 9- معبد وب-لال-ماخ. 10- معبد ننكَال. 11- كَي-بار-كَو. 12- القصر الكبير (قصر شو). 13- مقبرة شولكَي وامر. 14- المقبرة الملكية. 15- الحفرة الاختبارية. 16- مجموعة سكنية. 17- مجموعة سكنية. 18- البوابة الغربية. 19- معبد إينسكي

شكل 52: مخطط عام لمدينة أور ومعالمها البارزة

يمثل الفكر الديني المنطلق الجوهري الذي اعتمده الإنسان العراقي القديم في فهم واقعه، حيث أصبح ضرورة لازمة لحياته كونه النظام الروحي الذي ينظم علاقة المجتمع مع الطبيعة التي كان يعيش في حالة ترابط متميز معها، ويعمل على ديمومتها. إلا أن هذا الترابط لم يحقق الشعور الذي ظل يراود الإنسان حيث إن الكون والطبيعة خاضعين لقوى خارجية عنهما تجعل العالم فوق الطبيعي غير عقلاني، فيه قوة تسيطر على العالم الحقيقي بشقّيه الروحي المثالي والحقيقي المادي.

وإذا كان الإنسان القديم قد فشل في محاولاته السحرية في السيطرة على قوى الطبيعة، وقادته محاولاته للتوجه نحو الدين فإن ذلك التوجه أخذ شقين[1] الشق الأسطوري الذي ينظر إلى الكون على أساس أنه مجموعة من القوى الأساسية الفاعلة التي تمثله الآلهة، وما ظواهر الطبيعة إلا عناصر مادية لهذه القوى. أما الشق الديني الثاني فهو (الطقس الذي يقوم بإعادة تمثيل دور الإله وأحداث الطبيعة التي كان يؤديها الكهنة والناس، فكان نشوء الشعائر الدينية. (وفي فترة مبكرة من حياة سكان وادي الرافدين) أدى إلى ضرورة وجود أبنية خاصة تستوعب هذا النوع من الفعاليات، وتحقق الأبعاد الرمزية والروحية. فنشأت المعابد الأولى التي تطورت فيما بعد وظهرت بطابعها وخصوصيتها المميزة إذا كانت الأشكال المعمارية التي سبق وصفها عبر طبقات وحارات مدن أريدو وأور والوركاء تعبر عن التطور الذي انتاب بناء المعابد عبر الأزمنة التاريخية، وما سبقها من الأدوار الحضارية. فإن هذا التطور في فن العمارة الدينية جاء تحقيقاً للأغراض التي اضطلع بها المعبد بصفته المؤسسة التي تولت تنظيم النشاط الاجتماعي، والاقتصادي في المرحلة الحضارية الحضرية، وبتعبير آخر فإن عمارة المعبد وما دخل عليها من أبنية ومبتكرات وتقسيمات إضافية لم يكن استخدامها في كثير من الأحيان مقتصراً على ممارسة الشعائر الدينية بل امتدت لتشمل وظائف وشؤون دنيوية ابتدأت بتطوير بناء المعبد إلى الشكل الثلاثي بعد أن كان غرفة بسيطة. وفي ذلك الشكل اصطفت الغرف على الجانبين وكانت في المعبد لمزاولة العاملين النشاطات الاجتماعية إلى جانب الممارسات الدينية، وهذا يعني أن بعض المرافق فقدت الخصائص المباشرة الخاصة بالأعمال الدينية، إضافة إلى أن بعض الغرف أصبحت مخازناً لأثاث المعبد الطقوسية، وما يقدم من نذور وقرابين للآلهة وقد انتقلت دكة القرابين إلى الصالة الوسطية بعد أن كانت تحتل إحدى الغرف الجانبية وكان ذلك في معابد أريدو اللاحقة للطبقة 8 وفي الدور شبه الكتابي، حيث شهد بناء المعابد تطوراً أكثر تعقيداً في تصاميمه الداخلية بعد أن تكامل بناؤه، وأعطى نموذجاً تخطيطياً جعله عرضة

١- راضي، وعد - مصدر سابق ص 45.

لأكثر من تفسير للوظيفة التي كان يؤديها، فقد دفع وجود الغرف الإضافية خلف الذراع t إلى الاعتقاد بأنها كانت تمثل معبداً ثانياً. وساد مثل هذا الاعتقاد لدى المنقب هايترش[1] وأندريه بارو، حيث قالوا إن هذا المعبد قد خصص للآلهة عند نزوله إلى الأرض، وفي ذلك محاولة للربط بين هذا التفسير وفكرة إنشاء المعابد التي اعتلت المصاطب العالية والزقورات باعتبارها قد أنشأت للآلهة عند نزولها من السماء.

إلا أن طبيعة هذه الأبنية المزودة بمداخل خارجية من جوانبها واحتجابها عن المرأى من الصالة المركزية جعلها تضفي ميزة خاصة على هذه الوحدات حيث اتخذت مقراً لكبير كهنة المعبد، وعدد من الإداريين باعتبار أن طبقة رجال المعبد هي الطبقة الاجتماعية التي انفردت بمزاولة النشاط الاجتماعي. لذلك تحتم جعل مقراتهم تحظى بمظاهر الآلهة خلف الواجهة الدينية. وقد كانت تلك المحاولات البوادر الأولية لانفصال الأبنية المخصصة للأنشطة الاجتماعية عن الأبنية الدينية رغم أن تلك النشاطات كانت تقام تحت الإطار الديني العام.

وكان التحول الرئيس والجذري في أبنية المعابد الذي بدأ في حارة (أي - انا) في مدينة الوركاء في الطبقة الخامسة من هذه الحارة، عندما ظهرت المصاطب الثلاث الواقعة إلى الجنوب الغربي من معبد الحجر الكلسي التي دفعت منشآتها في ط 4 (ivb) (المعبد والصالة ذات الأعمدة ومصطبة الساحة الوسطية) للاعتقاد بأنها بنيت لأغراض خارج نطاق الطقوس الدينية ولا سيما صالة الأعمدة.

وهذا ما دفع هايترس إلى الاعتقاد بأنها ممر بذلت فيه أقصى الجهود، وحظيت بعناية فائقة لإظهارها كواجهة ذات طابع جمالي كبير. أما الباحة perkins فيعتقد بأن وظيفتها لا تقتصر على الناحية الجمالية فحسب، بل جاءت لتحل مكان المركز الإداري وذلك يظهر من نمط الأبنية التي تشير إلى بداية التقسيم بين الوظيفة الدينية والدنيوية وكبداية لظهور القصر أو البلاط الملكي. ومثل ذلك الصالة تذكر أن بداياتها كانت متمثلة ببناء الرواق للمعبد في أريدو التي تعود إلى زمن جمدة نصر[2]، ومما يؤكد هذا الاعتقاد هو استمرار وجود مثل تلك الأبنية في الطبقة iva، عندما ظهرت إلى جانب مجموعة معابد في هذا الدور تشكيلات بنائية تكاد تشكل وحدة قائمة بذاتها بعيدة في خاصيتها عن نطاق الطقوس والشعائر الدينية[3]. حيث ظهرت صالة الدعامات لتمثل نقطة مركزية في إطلالتها على

١- مهدي، علي محمد - مصدر سابق ص 105 عن uvb, vi p 8.

٢- بناية عثر عليها في أريدو قرب زقورتها إلى الشمال منها تمتاز بواجهاتها المدعمة، ولذا أطلق عليها المنقبون اسم البناية ذات الرواق المعمد (سفر - حفريات أريدو - سومر. م 4 ج 2 1948. ص 2277).

٣- مهدي، علي محمد. مصدر سابق. ص 111.

مجموعة المعابد e,d,c، ومن الجهة الثانية أحاطت كل من صالة الأقبية والحمامات ساحة وسطية لتشكل وحدة مستقلة ربما كانت بعيدة عن أداء الشعائر الدينية التي خصصت لها تلك المعابد. والأكثر دلالة على ذلك هي بقايا التشكيلات البنائية التي عثر عليها في (ط 3 من حارة أي - أنا) من الوركاء التي تقع إلى الجنوب الغربي من مصطبة (أي - أنا)، حيث الزقورة التي سبق وصفها على أنها بوابة كبيرة وبناء ذو ممرات (دهاليز)، وبقايا جدران مزدوجة شبهت بالجدار المعروف zingel.

عمارة المعابد المرتفعة (بناء الزقورات أو الأبراج المدرجة) **the ziggurat building:**

يشكل بناء الزقورات أبرز المعالم الأثرية التي نالت اهتمام المنقبين الأوائل واللاحقين في المدن السومرية، ولا سيما المدن الطلائعية، إذ إن ما خصت به من أشكال معمارية يعد أروع ما أنجزه الفكر السومري من عناصر بنائية تعكس تقدم فن العمارة، الذي كان قد بدأ في منتصف عصر الوركاء (عصر طلائع المدن) وتطور ليصل إلى البناء الزقوري، حيث بدأت أول زقورة في الوركاء نفسها عندما بنيت زقورة معبد آنو التي كانت تختلف عن النمط المعماري المعروف بالأبراج، التي شخصت لاحقاً في الحواضر العراقية القديمة. إذ إن ضخامة المصطبة التي قام عليها المعبد الأبيض وتطور عمارتها جعل منها زقورة، أو إنها تمثل مرحلة للانتقال إلى قيام الزقورة المدرجة[1] التي بنيت في كل من أور وأريدو والوركاء ونفر، ليستمر هذا النمط من العمارة في المعابد المتأخرة من العصر البابلي، حيث زقورة بابل ثم العصر الكاشي حيث زقورة عكركوف ذات الطبقات الخمس. لذلك فأصل الزقورة إذن هو بناء المعابد على مصاطب اصطناعية كانت قد بدأت في عصر الوركاء المتأخر، والدور شبه الكتابي. وبالتتابع تعددت المصاطب، وزاد ارتفاعها حتى صار هذا النمط من البناء أحد مميزات حضارة العراق القديم التي ظلت من الآثار التاريخية المهمة، ومن أشهر المآثر السومرية التي كانت وما زالت شاخصة في أرض وادي الرافدين، إلا أن ذلك النمط من البناء اكتسب شكلاً وأسلوباً آخر في عهد سلالة أور الثالثة، حيث صارت الزقورات التي بناها الملك أورنمو في كل من الوركاء وأريدو عبارة عن بناء مؤلف من عدة طبقات بنيت بشكل صلد من اللبن. وفي أور غلفت بالآجر الذي صار تقليداً في تغليف زقورات العصور اللاحقة، ويعلو طبقاتها بناء المعبد العلوي الذي خصص للإله الرئيس الحامي لكل مدينة، حيث إن هذه المعابد ليست مفتوحة للجميع لأنها محطة أو استراحة للإله المعين، وهو يهبط من عرشه من الأرض[2] ويمكن الوصول إلى ذلك المعبد في معظم الأحيان (كما هو الحال في زقورة أور) عبر ثلاثة سلالم اثنان منها جانبية تبدأ من الزاوية الخارجية إلى أحد

١- الصيواني. مصدر سابق ص 26.

٢- سعيد. مؤيد موسوعة المدينة. مصدر سابق ص 115.

الأضلاع، ويرتفعان إلى الداخل ليلتقيا عند وسط الطبقة الأولى بمستوى واحد بينما يبدأ السلم الثالث من نقطة أمام الضلع الموازي للسلمين، ويرتفع بشكل عمودي عليه ليلتقي عنده مع السلمين من المكان نفسه عند الطبقة الأولى، وعلى جانبي هذا السلم يقام معبد أو معبدان يعرفان بالمعبد الأرضي أو السفلي، وفوق الطبقة الأولى تكون الطبقة الثانية فالثالثة. وهكذا حتى المعبد العلوي فتبدو الزقورة وكأنها برجا مدرجاً[1] تتجه زواياه الأربع نحو الاتجاهات الكونية. وتحيط بالزقورة عادة ساحات واسعة للمصلين تسمى صحن الزقورة تطوقها قباب، وغرف لخدمات مختلفة معظمها لسكن الكهنة وموظفوا الإدارة، وحجرات للحرس، وأخرى لمخازن البذور والهدايا التي تقدم للآلهة، حيث تتصل مع بعضها فتشكل سوراً يحيط بفناء الزقورة (التيمنوس) وينفذ عبره إلى الخارج عن طريق بابين أو أكثر.

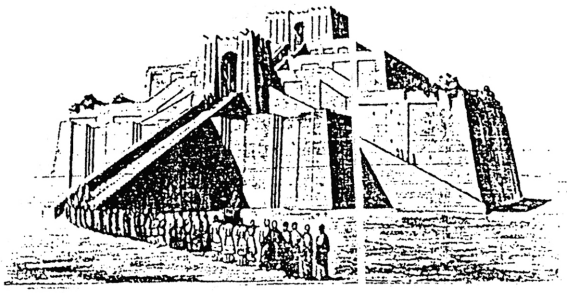

شكل 53: زقورة نوره أور - كما تصورها - وولي

ويمكن تتبع كثير من العناصر المعمارية لهذه المعابد العالية لولا أنها تعود إلى فترات متأخرة لمورفولوجية المدن الطلائعية، وتبقى زقورة أور وأريدو والوركاء خير دليل على عظمة البناء، والطراز المعماري الذي يليق بهيبة وظيفتها الدينية (شكل 53).

الوظيفة السكنية وأنماطها العمرانية (العمارة السكنية):

تمثل العمارة السكنية الأشكال الوظيفية الأولى التي بناها الإنسان عندما ظهرت كنتيجة حتمية مباشرة للضغوط البيئية الطبيعية التي قادت إلى الحماية الذاتية، حيث اتخذت من الملجأ البيضوي شكلاً أولياً لها بعد مغادرة الإنسان لملاجئه الطبيعية المتمثلة بالكهوف. وقد شكلت العمارة السكنية الأصول التي اعتمدت عليها النتاجات المعمارية اللاحقة التي ظهرت لتؤدي وظائف أخرى تكميلية، بعد ظهورها كوليد طبيعي للحاجة الآنية المباشرة تحت ضغوط المتطلبات الحياتية، والبيئية التي احتلت موقع الصدارة لتأمين الحاجة والاحتواء. بينما صارت العناصر والنتاجات المعمارية اللاحقة تكمل الوظيفة الأساسية لمتطلبات الإنسان، فظهرت بأشكال تلبي متطلبات بيئية وروحية، إضافة إلى أشكال أخرى لفعاليات جديدة للإنسان خارج حدود مسكنه فصارت تلك الأشكال المعمارية تعكس بشكل عام تحول الإنسان من عنصر خاضع للطبيعة إلى عنصر فعال فيها لا سيما بعد أن تبوأ مركزاً أتاح له ممارسة السلطة المستندة على أصول

١- الصيواني. مصدر سابق ص 26.

دينية ودنيوية، فتهيأت له الفرصة لفرض أشكال معمارية متطورة ظهرت بشكل معابد وقصور. ويعد تخطيط المسكن التشكيل الفضائي الأول الذي توصل إليه الإنسان، واعتمده لفترة طويلة كمبدأ تخطيطي أساسي تطور بدوره تبعاً لتطور الخبرة التقنية المعمارية. ولما كانت المنطقة السكنية وعبر جميع المراحل الاستيطانية في العراق القديم أولى مناطق التخصص الوظيفي فيها، فإن وجودها رغم اختلاف أنماطها وأشكالها، ومواقعها بالنسبة لتركيب المستوطنات ظل يعكس مستوى التفاعل الاجتماعي والاقتصادي، والعمراني مع البيئة المحيطة، وحتى في قرى السهل الجنوبي الناضجة تلك التي تحولت إلى طلائع المدن (أور - أريدو - الوركاء). كانت الأطلال الباقية لعمارة الوظيفة السكنية هي تلك الصدى المعبر عن طبيعة هذا التفاعل لذلك اتسمت عمارتها بالشكل المعبر عن كفاءة الأداء ضمن تلك البيئة التي سخرت عناصرها المحلية لإنجاز الأشكال المعبرة عن تلك الوظيفة التي ظهرت بنمطين هما:

1- عمارة الدور السكنية: لما كانت أريدو أولى المستوطنات في السهل الجنوبي التي كانت وظيفتها الأساسية السكن، فإن آثار تلك الوظيفة وجدت ممتدة في أسفل طبقاتها التي تعود إلى الأدوار الأولى للسكن، وتواصلت فيها حتى أصبحت مدينة. فكانت حفرة الأكواخ[1] هي الدليل الذي أوصل إلى الوظيفة السكنية التي وجد أنها تمتد في البقعة الواقعة إلى الشرق من السلم الوسطي للزقورة نحو 80م بالقرب من حارة معابدها[2]، وقد كشفت ط 10 عن وجود أولى أشكال الأكواخ المعبرة عن العمارة السكنية كما يوضحها (الشكل 54) الذي يصور كوخاً مشيداً بالقصب مسيجة جدرانه بالطين، وضم كل الفضاءات التي يحتاجها الساكنون. وهو يعكس النمط السائد في البيوت التي كانت تضمها قرى السهل الجنوبي حتى صارت مدناً، فاستمر يلازمها ذلك النمط من البناء الذي يشير إلى أن سكان أريدو وبعض المدن السومرية كانوا سكنة أهوار في بيئة طبيعية مشابهة لبيئة الأهوار الحالية.

١- وهي بقعة من سطح تل أبو شهرين تقع على بعد 80م من الزقورة إلى الشرق قليلاً من امتداد درجها الوسطي حفرت بشكل مربع ضلعه 7م للتنقيب عن مخلفات السكن من أريدو وقد عثر فيها على 14 طبقة ضمت بعضها بقايا أكواخ سكنية.

٢- سفر، فؤاد - حفريات الآثار القديمة في أريدو - الموسم الثالث - 1948-1949 - مجلة سومر. ج 2 م 5 1949- ص 163.

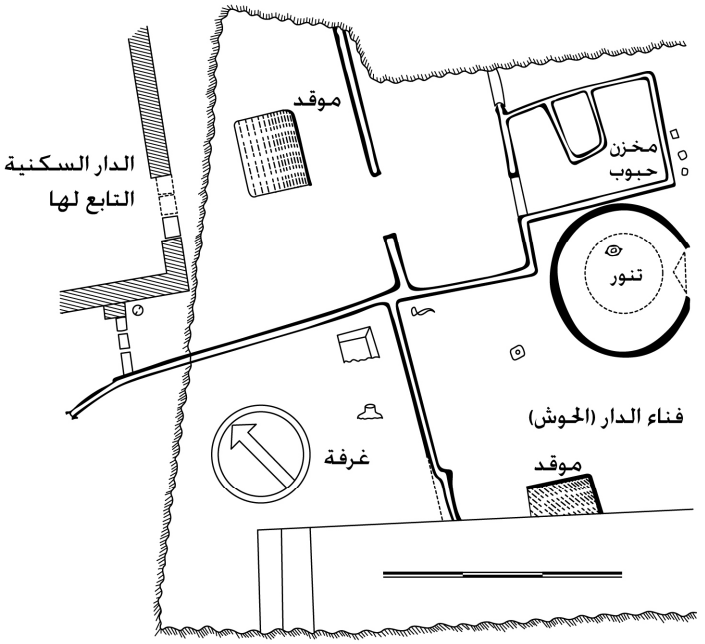

شكل 54: مخطط أرضي للكوخ المكتشف في الطبقة العاشرة في "حفرة الأكواخ" (سومر مجلد 5 1949)

وقد أظهرت الأختام الأسطوانية الأشكال المعمارية لهذه الأكواخ المشيدة من القصب، والتي تشابه في تفاصيلها أبنية المضايف الحالية في الأهوار (الشكل 55)، حيث تلائم رطوبة التربة والمناخ التي لا تقاوم فيما لو كانت البيوت قد شيدت بالمواد التقليدية[1].

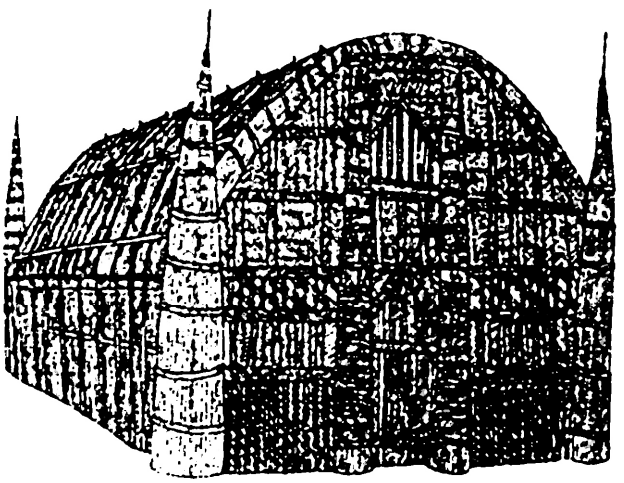

شكل 55: مضيف عرب الأهوار أو دار الضيافة في جنوب العراق وقد شيدت من حزم القصب. كثيرة الشبه ببناية الزرائب التي ظهرت على ختم من أواخر الوركاء

وقد أصبحت الوظيفة السكنية الأكثر طغياناً في استعمال الأرض داخل المدن، ومنها أريدو، رغم أن البيوت ظلت في أشكالها وتخطيطها تتبع النمط التقليدي للبناء الأول (إلا من حيث السعة وتقنية البناء والمواد المستخدمة) فقد دلت

١- علي. د. فاضل عبد الواحد مع د.

التنقيبات في الطبقات الست الأولى لحفرة الأكواخ عن استمرار ظاهرة السكن في تلك البقعة من أريدو، والمنطقة الممتدة بينها وبين التل الشمالي، وإن جميع أشكال دور السكن التي يعود تاريخ أحدثها إلى (3500ق.م) وما لحقها اتبعت نمطَ تصميمٍ واحدٍ حيث الساحة الوسطية المربعة والمستطيلة المكشوفة (تقابل فناء الدارِ الشرقي اليوم) يحيط بها عدد من الغرف المتلاصقة تطل على تلك الساحة وتنتهي الساحة بالمجاز المطل بابه إلى الخارج، وكان عدد الغرف ومساحة البيت يتناسب وعدد أفراد الأسرة ومستواهم المعاشي[1]. ويتميز مدخل الغرف بكونه منخفض إلى درجة تضطر فيها للانحناء. وفي بعض الغرف فتحات مربعة أو دائرية في الجدار الخارجي مسدودة بقطع من الآجر ذات الثقوب تسمح بحركة الهواء والإضاءة دون دخول الحيوانات والحشرات وكانت أرضية تلك الغرف معدلة ومسوّات بطبقة من الطين الممزوج بالتبن. ويدل بناء تلك الدور على أنها كانت تشيد وفق متطلبات صاحب البيت، ومن قبل بنائين متخصصين في ذلك النمط من البناء دون تخطيط مسبق. أما عن خلو تلك البيوت من أماكن خاصة بالاستحمام ودورات المياه وتصريفها فقد اقتصر وجودها على بيوت الطبقة الغنية لأن عامة الناس اعتادوا الاستحمام وغسل الملابس عند النهر.

ولعل نموذج الدار السكنية في الطبقة الخامسة من حفرة الأكواخ التي يعكس مخططها (الشكل رقم 56) خير من ينقل الخصائص البنائية، والنمط المعماري للوحدات السكنية التي تعكس العلاقة بين الوظيفة والشكل في دور السكن للفترة الأولى من نشوء المدن، ويدل تصميمها وانتظام أبعاد فضاءاتها على أن سكانها كانوا في طور راق من الحضارة والعمران[2].

أما في مدينة الوركاء فتشير أشكال البيوت التي عثر عليها في تيه كورا إلى أنها تعود إلى عصر الوركاء إلى تطور البيت في مراحله المبكرة، حيث وجد أنه يشكل منشأ كبيراً أبعاده 15-15م يبدأ من مدخل إحدى الواجهات ويؤدي إلى فناء جانبي ثم يتوزع هيكله بشكل متناظر حول فضاء مركزي مفتوح (ليوان). تمثل غرفة المعيشة الجزء الخلفي من المسكن وأمامها الساحة الوسطية الكبيرة (فناء الدار) بينما يتمثل الباقي من الركنين الآخرين (الشكل 56 أ)[3].

١- علي، د. فاضل عبد الواحد مع د. عامر سليمان "عادات وتقاليد الشعوب القديمة" جامعة بغداد 1979 ص 80.
٢- سفر، فؤاد - مصدر سابق، ص 164.
٣- راضي، وعد - مصدر سابق، ص 67.

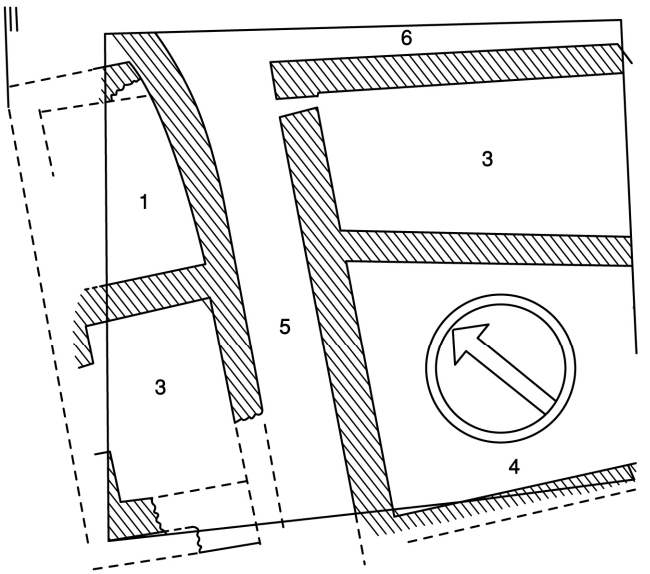

شـــكل 56- أ: مخطط أرضي للطبقة الخامســـة في حفرة الأكواخ (مجلة سومر ج5 1949)

أما في مدينة أور فقد أمكن تمييز نوعين من عمارة الدور السكنية تمثل الشريحتين الاجتماعية للمجتمع السومري، حيث دور الطبقة الفقيرة التي تتكون في معظم الأحيان من طابق واحد يبدأ بفضاء المجاز وعلى جانبيه الغرف المتخصصة لشتى الاستعمالات، وينتهي بفضاء الحوش الوسطي توزعت على جوانبه الأربع باقي الفضاءات. أما دور الطبقة الغنية التي وإن اختلفت مساحاتها إلا أنها ذات مخططات بنائية واحدة تتألف من دورين أو ثلاثة، يمثل الفناء الوسطي معظم مساحة الدور الأول وتحيط به الغرف، ويضيق عند الأمام بمجاز يتصل بالخارج عبر الباب الرئيسة، وتقع على جانبيه غرفاً للاستقبال والاستعمالات الأخرى وكانت مواد البناء المستخدمة متشابهة تقريباً، حيث بنيت واجهتا المنزل حتى سقف الدور الأول باللبن المحروق الذي استخدم في بناء الأجزاء الداخلية أيضاً. بينما استخدم اللبن النيء[1] في بناء باقي أجزاء المنزل، أما البيوت فكانت أسقفها من جذوع الأشجار التي تمتد فوق الطابق الأرضي إلى داخل الفناء فتكون غرفة تحيط بحجرات الطابق الأول.

أما السقف النهائي للدار فكان منفذاً بشكل مائل إلى الداخل لتصريف مياه الأمطار إلى الفناء الوسطي، ويتم تصريفها إلى الخارج عن طريق

١- الندوة القطرية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب - إصدار مركز إحياء التراث العلمي العربي - جامعة بغداد - مايس 1989، ص 39.

بالوعة[1]. أما المخطط الذي نقله وولي (الشكل 44) الذي يعود إلى فترة أيس ولارسا فقد بدا واضحاً فيه أن مخططات البيوت قد أصبحت نماذج متميزة لأشكال العمارة السكنية بصورها (الشكل 56 ب)، بدا فيه تخطيط البيت مربعاً 10×10 ضم فناءاً مركزياً (حوش) وتحيط به مجموعة من الغرف المنفردة. وتظهر في أحد الجوانب غرفة تحتوي على سلم يشير إلى وجود طابق ثاني يؤدي إلى شرفة خشبية ترتكز على عدة أعمدة خشبية في الأركان. ويدور حول الفناء بشكل ممر يقود إلى الطابق العلوي (الشكل 56 ج)، بينما يمتد سقف الطابق الأول ليظلل الشرفة العلوية، ويوفر لها حماية من المطر شتاءً أو الشمس صيفاً (شبيه بالدور البغدادية التي كانت سائدة حتى مطلع الأربعينيات من هذا القرن). وكانت هذه الدور تضم ما يزيد عن خمسة عشر غرفة فيها جناح مخصص للضيوف، والخدم وباقي غرف المعيشة. وفي هذه النماذج وجد أن المرافق الصحية تقع أسفل الدرج[2].

١- يوسف، شريف - تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور - إصدارات دار الرشيد للكتب - بغداد 1982، ص 54.
٢- راضي، وعد - مصدر سابق، ص 67.

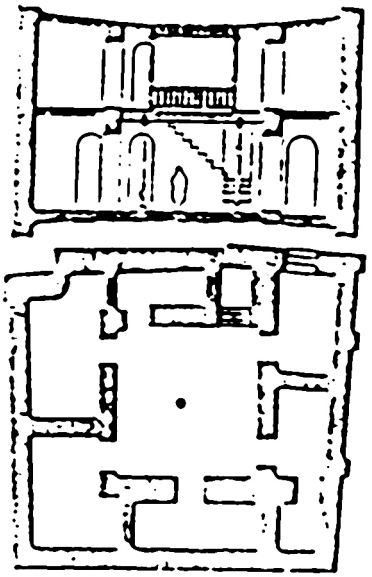

بيت سكني في أور
(اسين لارسا) (بدوي 1972)

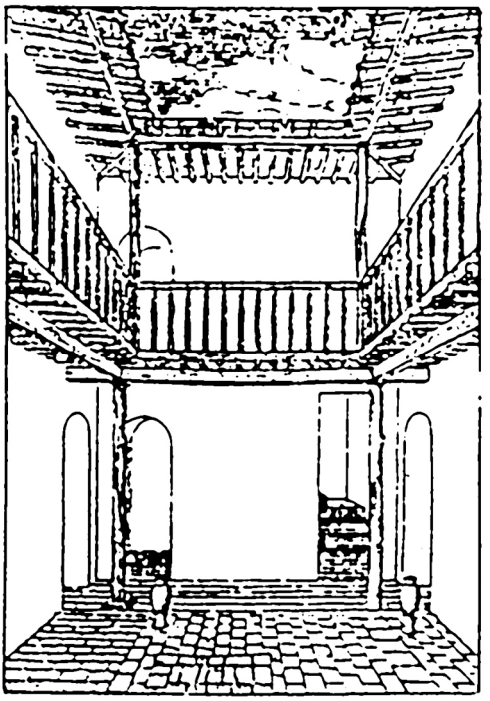

الفناء الداخلي في البيت من أور (القيسي 1983)

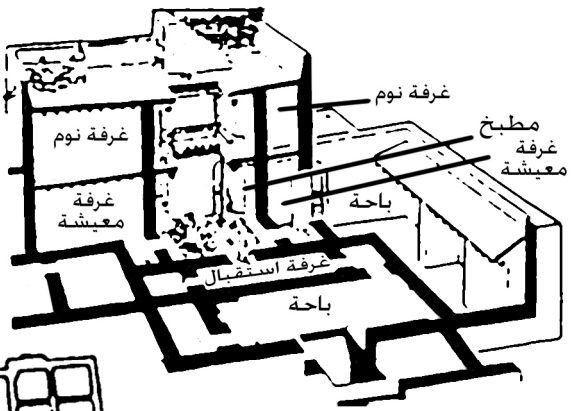

بيت سكني كبير
في أور (القيسي 1983)

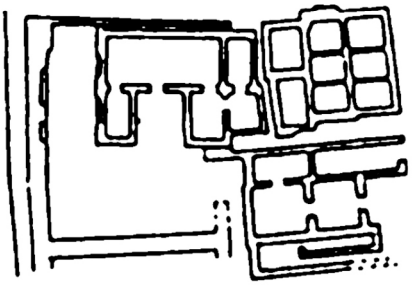

بيت سكني في تبة كورا
عصر الوركاء (بدوي 1972)

شكل 56 ب: نماذج لدور سكنية في مدن سومرية (راضي 1989)

وقد عثرت التنقيبات الأثرية التي جرت في المدن السومرية على عشرات الآلاف من العقود التجارية التي تمثل عمليات بيع وتأجير ورهن الدور السكنية التي كانت أسعارها ترتفع وتنخفض حسب موقعها وبنائها ومساحتها[1].

2- عمارة القصور: ظهرت عمارة القصور كوحدات سكنية ومقرات للحكام السياسيين في المراحل المورفولوجية التالية لنشأة المدن الطلائعية (في عصر السلالات) عندما برز إلى جانب ممثل الآلهة حاكم أو ملك اغتصب لنفسه السلطة المدنية، وربما الزعامة العسكرية وصار له منزل إلى جانب المعبد سمي بالقصر، وتأصل وجوده ليصبح تقليداً سارت عليه مدن السلالات السومرية الحاكمة وما تبعها من فترات، حيث صارت تلك القصور دوراً ومقرات للحكام، وإن تعددت وظائفها مثل قصور الوركاء التي كان أخرها قصر (اكيتو) يعود إلى العهد السلوقي، وقصور أور مثل قصر شلوجي وقصر نبوتائيد. وجميع تلك القصور ظهرت بأشكال تقليدية للبيت العراقي القديم، ولكن بمقياس أكبر وبشكل أضخم وهي كالمعابد وتشترك بالعناصر نفسها التي استعملت في تخطيط البيوت السكنية بهدف تحقيق الحماية البيئية، ومتطلبات الدفاع والخصوصية. وكانت مدينة أريدو السباقة في ضمها لأبنية القصور بدليل القصرين[2] اللذين وجدت آثارهما في موقع التل الشمالي من المدينة وإن كان أحدهما يختلف بعض الشيء في أبعاد غرفه عن الآخر إلا أنهما كانا متشابهين في التخطيط والعمارة التي تعود إلى بداية عصر فجر السلالات[3]. وسمي هذين البنائين بالقصور لمساحتها الواسعة والاعتناء ببنائهما وانتظام تصميمها الذي ضم كثيراً من المرافق ليستوعب رجال الإدارة. غير أن هذين القصرين وإن كانا متجاورين وبينهما منفذ يؤدي أحدهما إلى الآخر إلا أن كل منهما يشكل هيكل بنائي قائم بذاته وله أبوابه ومداخله وأجنحته الخاصة به. إذ يوضح مخطط أحد القصور (شكل 57) أن القصر كان:

١- علي، فاضل عبد الواحد - مصدر سابق، ص 80.

٢- القصرين لا يمكن أن يكونا معبدين لعدم وجود دكة القرابين والخلوة.

٣- سفر، فؤاد - حفريات مديرية الآثار القديمة من أريدو. مجلة سومر. ج 2 م 5 1949 ص 166.

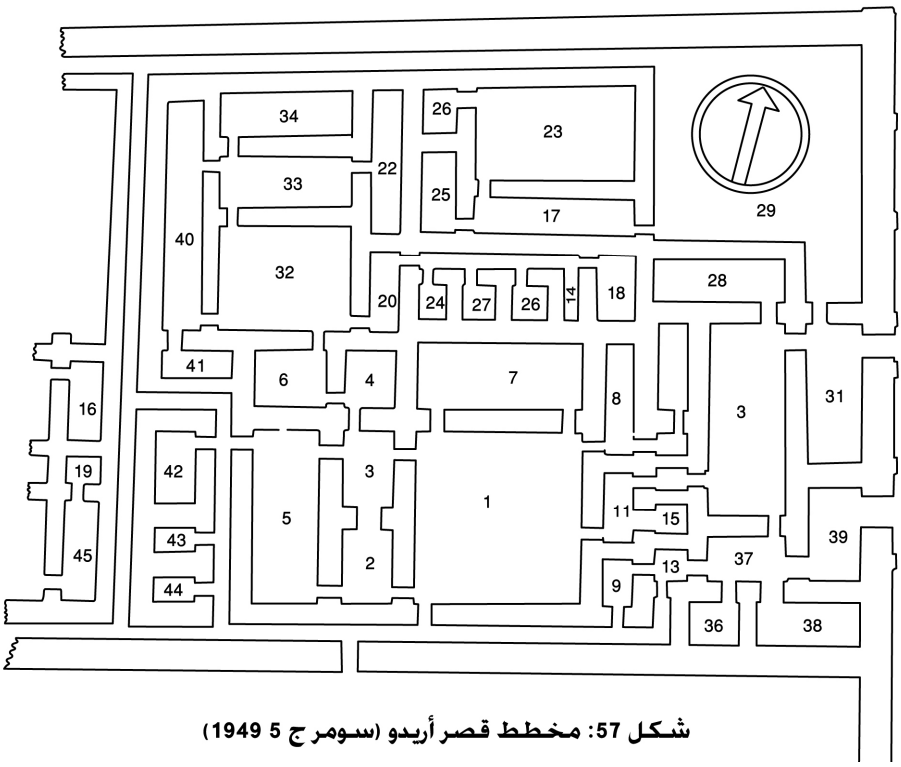

شكل 57: مخطط قصر أريدو (سومر ج 5 1949)

1- مستطيل الشكل من حيث الأبعاد الشكل عرضه 45م وطوله 68م وأبعاد فضاءاته الداخلية مختلفة حسب نوع الاستخدام. وقد شكلت فضاءات القصر ومرافقة المختلفة أجنحة قائمة بذاتها تمثلت في:

أ- الجناح الأول (الغربي a): الذي تميز بكثرة مرافقه التي شكلت مجموعتين حول فنائين كبيرين نسبياً الفناء الأول a1 في (رقم 1 في الشكل 57) وتطل عليه الفضاءات 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 43، 44، والفناء الثاني a2 (فضاء رقم 32 في الشكل 57) وتطل عليه الفضاءات 14، 18، 20، 24، 26، 27، 32، 34، 40، 41 إضافة إلى فضاءات الجزء الغربي الذي بدأ بالفضاء 16، 19، 45. التي ضاعت جميع معالمه لتهدمه.

ب- أما الجناح الثاني (الجنوب الشرقي b): وهو الجناح الذي يمر فيه كل من يدخل القصر فقد كان على الأرجح مقراً لحرس القصر، ومرافقي الأميرة. وقد تألف من الفضاء b (فضاء 30 في الشمل 57) الذي تطل عليه الفضاءات 9، 11، 13، 15، 28، 31، 35، 36، 37، 38، 39. ويحتمل أن كل من كان يدخل القصر

عبر هذا الجناح كان يغسل، قدميه في الغرفتين 11، 35 حيث وجدت تباليط من الحجر.

ويفضي هذا الجناح إلى شطرين ينفذ كل منهما إلى أحد البابين الرئيسين ليقوم كل منهم بغرض معين.

ج- أما الجناح الثالث (الشمالي الشرقي c): ضم الفناء c (الفضاء 19 في الشكل 57) الذي تطل عليه الفضاءات 17، 23، 25، 26 فيتم الدخول إليه من المدخل الواقع بالقرب من الباب الرئيس للقصر الذي يتوسط ضلعه الشرقي[1].

2- أما عن بناء القصر فقد تميز بالضخامة، والمساحة الواسعة، والاعتناء الفائق ببنائه، والانتظام بتصميم فضاءاته وسمك جدرانه وصلادتها، حيث بلغ سمك جدران الجوانب نحو 2.60م. أمّا جدران الفضاءات الداخلية فقد بلغ سمكها نحو 1.30م. شيدت جميع جدران القصر ومرافقه بلبن ذي شكل واحد. أحد سطحيه محدب والسطح الثاني مستو، وقد رصفت بهذا اللبن بعض المسافات على جانبيه وفي البعض الآخر على سطحه المستوي، حيث كانت ميزة البناء بهذا اللبن هي الصفة التي امتازت بها مباني عصر فجر السلالات، واستمر بذلك حتى عام 2500ق.م[2]. ومن معاني الاهتمام بهذا القصر هو المستوى الموحد لجميع أرضيات فضاءاته، وكذلك جدرانه التي هدمت جميعها بمستوى واحد وصل إلى ارتفاع 50سم عن أرضيته لتشيد بناء جديد على بقاياه. وقد شيدت جدران القصر على أسس بلغ ارتفاعها نحو 45سم وعرضه 1.80م، ظهر إلى جانبها دهليز ولا سيما الجانبين الطويلين للقصر (الفضاء 10 في الشكل 57) يبلغ عرضه 21م. يظن أنّ هذا الدهليز قد وجد لأغراض دفاعية، بالإضافة إلى قيامه بفائدة بيئية تمثلت بالمحافظة على حرارة غرف القصر صيفاً وشتاءً من التقلبات الجوية في منطقة أريدو ومن الأعاصير الرملية[3].

وقد لوحظ أن الضلع الشرقي من القصر كان مدعماً بإطار (دعامات) من الخارج تبرز عنها بمقدار 15سم. حيث لا يشترك ذلك الضلع مع أي أبنية أخرى في القصر، وفيه يقع البابان الرئيسان المؤديان إلى الخارج، وكانت جوانب القصر الأربعة الرئيسة تقابل الجهات الكونية الأربع.

3- أما عن وظيفة هذا القصر وإن بدت غير مؤكدة إلا أنه كان مقراً للحاكم وسكن لأفراد أسرته، حيث كان الجناح الجنوبي الشرقي مقراً لحرس الأميرة ومرافقيها كما ذكرنا.

١- سفر، فؤاد - حفريات مديرية الآثار القديمة من أريد. مجلة سومر ج 2 م 5 1949 ص 166.

٢- المصدر السابق ص 166.

٣- سفر - مصدر سابق ص 166.

الوظيفة الدفاعية وعمارة التحصينات (العمارة العسكرية)

ظل هاجس الحماية والدفاع العنصر الأساسي الذي ينشده الإنسان العراقي في بيئته منذ بداية حياته في الكهف وصولاً إلى المراحل المتطورة في المدن الكبيرة. ولذلك ظهرت ملامح العمارة العسكرية بشكل بصمات واضحة على النتاج المعماري، حيث ظهرت المعالجات المعمارية الدفاعية على جميع المستويات بدءاً بالوحدة السكنية البسيطة وصولاً إلى المدينة، والتي لم تقف عند حدود مجموعة محددة من العناصر والأشكال وإنما أصبحت جزءاً أساسياً ضمن مفردات الحياة الكلية[1].

فإذا ما تجاوزنا الأشكال الأولى التي أخذها الإنسان العراقي القديم كتحصينات موضعية تعبر عن الوظيفة الدفاعية لحماية نفسه، ومعاشر تجمعاته البشرية في العصور الحجرية القديمة منذ أن هجرت الطلائع البشرية في العصور الحجرية القديمة الكهوف والملاجئ الصخرية التي اتخذها كمأوى له تحميه من التقلبات الجوية، وهجمات البشر، والحيوانات المتوحشة.

فإن نتائج الحفريات الأثرية في مواقع ومستوطنات الإنسان منذ أقدم فترات نشوء القرية الزراعية تشير إلى استغلاله لجميع الموارد التي وفرتها الطبيعة في الدفاع عن نفسه، وعن محل سكنه. لذلك ابتكر العديد من الطرق والوسائل الناجحة لتأمين مثل هذه الحماية فشيد مستوطناته في أماكن منيعة ومحصنة بعوارض طبيعية وفرها له الموقع العامل الجغرافي. ثم ابتكرت مخيلته أشكالاً وأنماطاً في العمارة السكنية التي تتيح للمستوطنين حركة التنقل بين أقسامها في الوقت الذي تمنع فيه تسلل الأغراب إلى داخلها إلا بصعوبة، فكانت نماذج البيوت المتراصة في الفترة الممتدة بين جرمو وحسونة، ويبدو أن أنجح الوسائل الدفاعية تتمثل في ابتكار الاستحكامات الدفاعية الدائمة المحكمة البنيان معبر عنها بالأسوار والحصون التي أقامها حول المدن، ومثلت قشرتها الخارجية من بنيانها الوظيفي فصارت تفصلها عن الإقليم الريفي المحيط حيث كان النشاط الزراعي. وكانت هذه الاستحكامات أحد عوامل نشوء المدن وتميزها عن ظهيرها كما أنها عوامل حماية وتأمين سلامة المدن ومستوطنيها.

لذلك فقد اختلفت أنماطها العمرانية وأشكالها البنائية حسب الطبيعة الجغرافية لموضع كل مدينة وما توفر فيها من مواد أولية، وحسب الفترة التي واكبتها تلك المدن ابتداءً من المدن الطلائعية أور وأريدو والوركاء ومدن عصر

١- راضي، وعد - مصدر سابق ص 70.

فجر السلالات وصولاً لمدن العصر البابلي التي اختلفت عبرها أنماط تلك الاستحكامات نتيجة لتطور ابتكار الأسلحة عبر تلك الفترات، وتطور أساليب وطرق الهجوم والدفاع، كذلك سعة مناطق الحروب واستمرارية النزاعات فيها[1]. ويبدو من النصوص المسمارية التي خلفها سكان بلاد الرافدين في مختلف عصورهم التاريخية أهمية تلك الاستحكامات وأثرها في البنية الاجتماعية داخل المدن المحصنة ولا سيما الطلائعية منها، باستثناء بعض الظواهر المدنية الجديدة التي لم تكن موجودة من قبل في المستوطنات المكشوفة. منها شعور المواطنين بالأمان داخل المدن ذات الاستحكامات المنيعة، حيث تقدم لهم غطاءً دفاعياً أميناً من نزعات التوسع والعداء لدى خصومهم، وفي استتباب الأمن وسيادة العرف والقانون في الداخل، وإشاعة روح الطمأنينة والاستقرار. ولا يتسع المجال لذكر ما خلفته النصوص من أهمية لتلك الوظيفة التي حققتها الخنادق والأسوار في بعض معان القوة لعصر فجر السلالات، وكيف أن هذه التحصينات كانت تمثل الحدود الآمنة لدويلات المدن، وأنها الحدود السياسية المصطنعة الفاصلة بين دولة مدينة وأخرى، ونكتفي بذكر النص الذي يعود إلى "اناتم" أمير لكش الذي يذكر "أنه حفر قناة فاصلة بين مدينته ومدينة أوما المعادية له، وشيد على ضفافها سوراً وأقام فوقه أنصاباً ذات صبغة دينية مقدسة لتكون سداً منيعاً يقف بوجه جيوش الأعداء، ويمنع ملاكي الأرض من التجاوز على أرض ومياه دولة ومدينة لكش" ويبدو من ذلك النص أن التحصينات الأمنية بشكل عام لم تكن للوظيفة الدفاعية فحسب بل لأغراض منها[2]:

أ- إن أول وظائف الاستحكامات بعد الوظيفة الدفاعية: هي حماية أصحاب الثروة والسلطة العليا. ونقصد بذلك حماية ذوي النفوذ الديني لإضفاء صفة الهيمنة والقداسة على رجال الدين المنشغلين بعبادة الآلهة، ورعاية مصالحها، وإقامة الشعائر. لذلك ظهرت أسوار المدن بشكل عام والأسوار الداخلية المحيطة بالمنطقة المقدسة بشكل خاص لتكون حرماً مقدساً أمناً يحرم الدخول إليه إلا بعد مراسيم وشعائر ونذور وقرابين تقدم للآلهة، فضلاً عن جعل المنطقة المقدسة خفية عن الأنظار، وكان مجرد التفكير بما جرى خلفها من طقوس دينية وروحية

١- الأعظمي، محمد طه - مصدر سابق ص 48.
٢- الأعظمي، محمد طه - مصدر سابق ص 46-52.

دون التمكن من رؤيتها كافياً لبث الرهبة والخوف في أوصال المستوطنين والمتعبدين على حد سواء.

ب- لأغراض سياسية: حيث تكمن في رغبة السلطة المركزية للمدينة في بسط سيطرتها على القاطنين ومؤسسات المدينة داخل نطاقها، ومن ثم القدرة على التحكم بسلوكهم ونزعاتهم لتأكيد ما يصطلح عليه اليوم (بمركز السلطة). ونعلم أن السلطة التي كانت تحكم المدينة آنذاك هي سلطة دينية (ودنيوية اجتماعية تحت ستار الدين) كان يملكها الأنسي أو الحاكم الإلهي أو الملك، والطبقة المتنفذة معه. فبقاء السلطة الدينية السياسية والاجتماعية تكمن في فرض هيمنتها، وتشديد قبضتها. لذلك فقد أحاطت المدينة بسور تحدد عن طريقه الحركة داخل المدينة أو بين المدينة وخارجها لتفرض بعد ذلك قانونها وأعرافها على المستوطنين بهدف إدامة نفوذها بقوة، هو ونفوذ لا يتزعزع. وقد ذكر الملك الآشوري الأول ذلك صراحة عندما قال عن مدينته الجديدة بأنها "متراس هيمنته"[1].

3- لتحقيق وظيفة قانونية فقد ورد في القوانين العراقية القديمة أن حدود المنشآت الدفاعية ولا سيما الأسوار هي الحد القانوني الفاصل بين داخل المدينة وبين الأرض الممتدة خارج سورها. ومن تلك القوانين قانون أور نمو الذي ورد فيه (إن التجاء العبد أو الأمة إلى خارج سور المدينة بمثابة هروبه وتخليه عن الالتزامات القانونية والاجتماعية).

4- ومن الوظائف المكانية ذات البعد الاجتماعي والقانوني هو أن إحاطة المستوطنات بوسائل دفاعية دائمة مثل الخنادق والأسوار معناه أن تصبح حداً فاصلاً بين ما تحيط به هذه الوسائل الدفاعية نقصد به الحيز المكاني المحدد للمدينة، وبين الفضاء المفتوح الممتد حولها من ضواحي وقرى ومدن أخرى. والذي يتميز بعالمه الخاص الذي يختلف عن مجتمع المدينة، حيث الأمن والنظام والاستقرار والعلاقات الاجتماعية المتبادلة.

5- ومع تعدد أسباب اتخاذ الاستحكامات الدفاعية وتشعبها فإن الجانب الأمني يبقى في مقدمة العوامل التي حملت المستوطنين وحكامهم على اتخاذها، لما تقدمه لهم في نهاية الأمر من مميزات دفاعية عسكرية تتمثل في كونها وسيلة ناجحة تمنع الأعداء من استخدام معداتهم الحربية الهجومية.

وقد اتخذت الاستحكامات في عصر طلائع المدن أشكالاً مختلفة منها الأسوار والخنادق والقلاع والحصون، وربما نمط من الاستحكامات المركبة التي كان الغرض منها رفع القدرة الدفاعية للمستوطنات بشكل عام ولا سيما المستوطنات الحيوية. مثل حفر الخنادق وبناء الأسوار في أن واحد، أو القلاع الداخلية أو بناء المرافق المعمارية على اختلاف أشكالها، وتباين وظائفها وفق نمط دفاعي مستحكم يجعل منها حصناً منيعاً يصعب النفاذ إليه مثل القصر

١- الأعظمي، محمد طه - مصدر سابق ص 55.

المحصن في أريدو، أو الأبنية الدائرية المركبة في الوركاء، وهي تلك المباني التي عرفت بالريمش rim change nbauce التي اختلف في تفسير وظائفها.

عمارة الخنادق:

الخندق من الناحية المعمارية عبارة عن منخفض مائي أو أخدود صناعي يحيط بالمدينة أو قلعة ما أو أي مبنى من جهة واحدة أو من عدة جهات. وفي الغالب تكون مملوءة بالمياه وهو بذلك يجسد المعنى اللغوي له، إذ إن الخندق في اللغة العربية هو الحصن الأول حول أسوار المدن. وقد ورد ذكر الخندق أو القناة في اللغة المسمارية القديمة (الصورية) وهي علامة تصور القناة ذات الأضلاع الثلاثة، حيث كانت القنوات تحيط بالمستوطنات من ثلاث جهات في معظم الأحيان، بينما تؤلف الجهة الرابعة موضع المجرى المائي (نهراً أو جدولاً كبيراً) الذي يأخذ الخندق مياهه منه. لذلك صارت الكلمة المعبرة عن الخندق مسبوقة بالعلامة الدالة على النهر التي كانت e في السومرية وid في الأكدية. وكسائر التحصينات فقد استخدمت الخنادق كأحد الوسائل الدفاعية حول المستوطنات السومرية، حيث ورد ذكرها في كتابات حكام مدينة لكش في معرض حديثهم عن وصف النزاعات بينهم وبين حكام مدينة أوما المجاورة لهم، حيث يذكر (أنا تم) أمير لكش أنه حفر خندقاً حدودياً أو قناة مائية كبيرة ورد لفظها شكل e,-ki-sur-ra لتكون قناة حدودية بين مدينته ومدينة أوما، ولتصبح عائقاً مائياً فعالاً يقف بوجه اندفاع موجات جيوش أوما أو زحف سكانها الذين يبقون السيطرة على الأرض الزراعية التابعة له[1].

ثم تذكر النصوص الأخرى أن حكام هذه المدينة بعد "أنا تم" قاموا بتوسيع قناة الحدود بعد أن تجاوزتها جيوش الأعداء، وغيروا في مسارها، وتشير إلى أن الأمير انتمينا قام بتثبيت عدد من المسلاّت والنصب الدينية على طول ضفتي القناة، ليذكر الجميع بشرعية الحدود، ومنع تجاوزها، وإلا ستصب عليه لعنات الآلهة. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الخنادق لها وظيفة أخرى غير الدفاعية لتكون حداً فاصلاً بين أي مدينة وأخرى، وقد حصل مثل ذلك في عصر سلالة أور الثالثة عندما قام ملكها أورنمو بحفر خندق واسع أسماه ننارهو، وجعله خندقاً حدودياً ملأ قاعه بالمياه، وجعله كالبحر[2].

عمارة الجسور والمعابر على الخنادق:

لا بد من تأمين طريقة تسهل عبور واجتياز الخنادق بعد شقها وحفرها، ومن تلك الوسائط بناء جسور وقناطر ملائمة لعبور المشاة والعربات، وكانت عمارة هذه الجسور تتم بشكل يتوافق مع سعة وحجم وطبيعة الخندق بما لا يسيء إلى مهمتها الأمنية في حماية المدينة كأن تكون الجسور تتمتع

١- الأعظمي، مصدر سابق ص 133-149.

٢- الأعظمي، مصدر سابق ص 136.

بقابلية الحركة، ويمكن رفعها بسهولة لكي لا تستخدم من قبل المهاجمين مثل جسور الطوافات التي ترصف فوق الخندق، وتثبت عند الضفتين بالحبال. أما الخنادق العريضة فقد كانت تقام فوقها جسور مؤلفة من عدد من القوارب ترصف وتثبت بحبال ثم يثبت وسطها ألواحاً خشبية سميكة لتكون صالحة للعبور[١].

عمارة الأسوار:

السور في اللغة العربية يعني حائط المدينة المشتمل عليها ولقد أشارت أولى المصادر الكتابية التي ظهرت بهيئة علامات صورية إلى هذا المعنى، وظهرت علامة السور بالشكل الذي يعني صورة المدينة محاطة بسور تتخلل واجهته الخارجية أبراج دفاعية، وتتوسط علامته خطوط متشعبة ترمز إلى شوارع المدينة، وتقسيماتها وأحيائها الداخلية[٢]. ولذلك صار السور أحد الأقسام المهمة في المدينة، وهو كما نعلم الجزء الثالث من عناصر تكوينها الحضري بعد المنطقة المركزية، والنسيج الحضري الذي أطلق عليه قشرة المدينة.

وبشكل عام فإن عمارة الأسوار مهما كان حجمها أو سعة امتدادها فإنها تتألف معمارياً من ستة أقسام رئيسة هي[٣]:

1- الأساس أو القاعدة التي يقوم عليها السور، والتي ورد ذكرها في نصوص اللغة السومرية بكلمة issum وفي العصر الآشوري بهيئة sasuum وهي أقرب إلى كلمة أساس في اللغة العربية.

2- بدن السور الذي كان يسمى بالسومرية ub، وهي المادة البنائية في السور التي ترتفع ويحسن بناؤها المشيدة من اللبن.

3- جانبا السور أو واجهتاه التي تغلف بدن السور فتكون طبقة من الآجر agorrom أو قد ترصف بعض جوانب الأسوار بالحجارة، فيسمى بالسور الحجري dur-abin.

4- قمة السور التي تسمى بالسومرية .sag وفي الأكدية resum التي تقابل كلمة الرأس في العربة بكل ما تعني الكلمة من السمو والعلو، إضافة إلى معناها الدلالي الذي يشير إلى قمة أو مقدمة الشيء، وقد ظهر أنها مشيدة من الحجارة والآجر أو الآجر المزجج.

5- وفي كثير من الأسوار وجد أنها تعلى بحاجز أو شرفة غالباً ما تكون مسننة كذلك كانت الأسوار تزود بفتحات أو مجاري للمياه تحفر عند قمتها ثم تخترق بدنها وصولاً إلى القاعة السفلى لتقوم بتصريف مياه الأمطار، والرطوبة

١- المصدر السابق ص 149-151.

٢- المصدر السابق ص 153.

٣- الأعظمي - مصدر سابق ص 154-158.

لكي لا تؤثر على بدن السور، وكانت تسمى قديماً bibu وهي أقرب ما تكون إلى الكلمة العربية بيب أو بايب وتعني مجرى الماء إلى الحوض. كذلك كانت تعمل فتحات صغيرة الشكل لتكون منافذ للمراقبة أو للرمي، وقد شيدت وفق أشكال وأحجام متباينة حسب طبيعة وعمارة الأسوار.

6- آخر الأقسام وأهمها في عمارة الأسوار هي الأبراج التي كانت تشيد لسعة الأسوار الداخلية والخارجية أو عندهما معاً، وكذلك عند الأركان، وعلى جانبي أبواب السور لكي تستخدم للمراقبة والرصد والرمي ضمن الوظيفة الدفاعية لهذا الاستحكام.

ولقد ظهرت الأسوار وهي تحيط بالمدن في مرحلة مبكرة من نشأتها الطلائعية، فإذا ما تجاوزنا أقدم أشكال أسوار المدن التي تعود إلى بداية العصر الشبه الكتابي في مستوطن وركائي تجاري تعرف بقاياه اليوم باسم (حبوبة الكبيرة)[1]، فإن سور الوركاء الذي بناه ملك سلالتها الأول جلجامش (3000ق.م) يعد أقدم وأعظم سور يحيط بواحدة من المدن السومرية حيث بلغ طوله 9.5كم ظهرت بقاياه بهيئة تلال متفرقة تحيط بالمدينة كالدائرة الكبيرة أو بشكل بيضوي، وكان أكثرها وضوحاً في القسم الشمالي الشرقي وفي الجنوب الشرقي من المدينة، حيث جرت التنقيبات هناك، ففي الجزء الشرقي للسور ظهر وجوده من النوع المزدوج على شكل سورين متجاورين يحيطان بالمدينة شيد السور الداخلي بحجم أكبر وأكثر اتقاناً من السور الخارجي، بينما شيد السور الداخلي فوق أساس صلب من اللبن المستوي المحدب أقيم فوقه بدن السور الذي يتألف من قسمين الأول هو لب السور الذي يتراوح سمكه بين 4-5م شيد من اللبن المستوي المحدب قياس 20، 10، 7سم، أو 20، 12، 7سم أما القسم الثاني من السور فواجهتاه شيدتا من اللبن المستوي المحدب قياس 25، 16-17 8سم، بذلت عناية كبيرة في بناء الواجهة الداخلية التي بدت مجددة في العصر البابلي القديم بغلاف من اللبن. أما الواجهة الخارجية فقد تم اكساءها في العصر نفسه بغلاف من اللبن الكبير الحجم قياس 38، 22، 11سم، وطليت واجهته بطبقة من الطين سمك 5سم، وقد شيدت أبراج ملاصقة للواجهة الخارجية للسور أبراج على شكل مرتفعات مستطيلة الشكل بطول 2.5م تبرز عن واجهة السور بمقدار 1.8م وصل عددها نحو 900 برج، وكانت المسافة بين الواحد والآخر نحو 8-9م. أما السور الخارجي لمدينة الوركاء الذي يبعد نحو 10م عن السور الداخلي وهو بسمك 3م فقد بني من اللبن

١- الأعظمي - مصدر سابق ص 202.

المستوي المحدب قياس 25، 15، 7 سم وكان مشيداً بالأسلوب نفسه الذي شيد به السور الداخلي[1].

وقد كشفت التنقيبات عن وجود بوابتين لهذا السور إحداهما شمال المدينة ودعيت بالبوابة الشمالية، والأخرى في الجنوب باتجاه مدينة أور أسمتها المصادر المسمارية باسم بوابة أور[2].

وقد جدد بناء السور، وتمت تقويته في عهود لاحقة حيث أضيف إليه في العصر البابلي القديم غلاف لتقويته، فتبين أنه بني بلبن كبير ذو شكل متوازي المستطيلات وهو يختلف عن بنائه الأصلي، ثم حصلت فيه تجديدات في العصر الآشوري.

مما تقدم يبدو أن إقامة سور الوركاء يدل على وعي وفكر منظم ومتطور في تصميمه وإنشائه لأداء وظيفته.

ومن المدن السومرية اللاحقة التي شهدت بناء الأسوار حولها هي مدينة لجش، حيث تشير المصادر المسمارية إلى أن حاكمها أور نانشا (2520ق.م) قام ببناء سور يحيط بمركز حكم سلالته (مدينة لجش أو الهبة) والذي وسعه وقواه حاكمها الثالث (أي اناتم) وبنى سوراً آخر حول أحد المراكز في دولته هو (سور كرسو تلو)[3].

أما في عصر سلالة أور الثالثة فقد قام مؤسسها أور نمو (2121ق.م) ببناء سور حول المدينة أور أثناء السنة السادسة من حكمه ثم جدده وقواه ابنه شولجي وسماه سور البلاد[4]. هذه الأسوار وغيرها لا تختلف عن الفكرة السياسية لتصميم وإنشاء الأسوار لتؤدي الوظيفة الموكلة إليها.

خامساً: المعالجات البيئة وخدمات المرافق الصحية:

من الخصائص التي احتواها الفكر التخطيطي السومري، وبدا واضحاً تطبيقها في تخطيط المدن السومرية الطلائعية، واستمر تطبيقها في المراحل اللاحقة هي عناصر المعالجات البيئية التي برزت على مستوى المدينة ككل ولا سيما الوحدات المعمارية. انطلاقاً من إيمان الفكر السومري بوجود نوعين من المتطلبات البيئية التي تلبي حاجات المجتمع والفرد. فالمجتمع ينشد توفير مراكز

١- المصدر السابق ص 202.
٢- الأعظمي - مصدر سابق ص 109.
٣- المصدر السابق ص 206.
٤- للمزيد من المعلومات عن سور أور وسور منطقتها المقدسة المعروف السور (التمنوس) راجع أطروحة محمد طه الأعظمي. ص 206-212.

بيئية قادرة على استيعاب النشاطات الاجتماعية، والعمرانية لضمان استمرار التفاعل الاجتماعي، والحصول على الخصوصية والحماية للمجتمع التي استطاعت المدينة السومرية تحقيقها عن طريق:

1- استمرار توجه المدن السومرية الطلائعية بشكل مواز لاتجاه نهري دجلة والفرات بحكم العلاقة الوثيقة بين موقع تلك المستقرات، وانسياب هذين النهرين اللذين كانا الأساس الأول في حياة سكان بلاد الرافدين. فظلت أور والوركاء تتجه محاور أشكالها من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي حيث مجرى النهرين، مما جعلها عرضة لهبوب الرياح الشمالية الغربية التي يستلطفها العراقيون كونها تمر فوق نهر الفرات قبل وصولها تلك المدن. كيف لا وإن نهر الفرات وإحدى قنواته تحيط بمدينة أور من الشمال والشمال الغربي، بينما توسدت مدينة الوركاء الضفة الشرقية لنهر الفرات الأمر الذي جعلها عرضة لمثل تلك الرياح المطلوبة لراحة المقيمين.

وظهرت جميع المدن في الفترة التي تعاظم فيها انتشار المدن السومرية في دلتا النهرين في الضفة الأقرب لشرق نهر الفرات حيث الوركاء ولجش وأوما وايسن ولارسا بعد أن تمكنت من السيطرة على فيضانات نهر الفرات عبر شبكات وقنوات الري العملاقة التي تحققت في عهد السلالات ولم يعد يخيفها انحدار مياهه مع انحدار الأرض من الشمال الغربي، وتم تشجيرها لأغراض زراعية. وأنشأت التحصينات الموضعية بما يؤمن الحماية الموضوعية الذاتية كالخنادق، إضافة إلى التمتع بالمزايا الاقتصادية والبيئية الأخرى.

2- وضمن النسيج الحضري للمدن السومرية اتخذت معظم أبنية الوحدات المعمارية مبدأ توجه زواياها نحو الاتجاهات الأربعة الرئيسة كضرورة لمواجهة الرياح الشمالية الغربية السائدة، وتحقيق مستوى متوازن من الشمس لجميع واجهات هذا النسيج، إضافة إلى القيمة الرمزية والدينية التي تمثل نقطة تقاطعها الاتصال بالسماء.

3- أظهر النسيج العفوي المتنام الذي بدا شكله جلياً في المقطع الذي صوره وولي في مدينة أور (الشمل 44) حالة من الحماية البيئية للمقيمين من المؤثرات المناخية، كان بالإمكان تلمسها في المدن العربية والإسلامية التقليدية التي كان نسيجها العضوي والعفوي يشبه ذلك النسيج حيث وجد أنه يعمل على وقاية المقيمين من حرارة وجفاف صيف العراق، وشمسه اللاهبة التي يتعاظم تأثيرها في جنوب العراق فكان الظل الذي يكونه مثل هذا النسيج يحكم توزيع الأزقة وانتشارها، وتعدد طوابق الدور، وهرمية تدرجها من المركز نحو الخارج. ومنه ما يكفي لخلق الظلال وتوليد التيارات الهوائية المناسبة لراحة المقيمين. إضافة إلى دور ذلك النسيج في تقليل أثر الرياح

الحاملة للأتربة والغبار، والتي كانت تهب من الصحراء الغربية والجنوبية الغربية المجاورة لموقع أور.

أما على صعيد متطلبات الفرد فتنحصر المعالجات البيئية في توفير ملجأ يضمن له الحماية، والخصوصية التي تكسبه الراحة والطمأنينة وقد تحققت مثل هذه الخاصية عبر المعالجات البيئية في الوحدات السكنية عن طريق:

1- استمرار هيمنة الفناء الداخلي (الحوش) على معظم المساحة المخصصة للوحدة السكنية، الذي توزعت على جانبيه الفضاءات الأخرى بما يضمن إطلالتها إلى الخارج عبر الممر الرئيس (المجاز) فيجعلها تنال قسطاً كافياً من التهوية صيفاً والتشميس شتاءً.

2- أتاح نظام الامتدادات في سقف الطابق الأرضي بشكل مائل إلى الداخل ضمان تصريف مياه الأمطار إلى الفناء الوسطي، ومن هناك يتم تصريفها إلى الخارج بوساطة بالوعة.

3- وجود دورة المياه (المرافق الصحية) تحت الدرج الذي يرتفع من الطابق الأرضي إلى الطابق الأول دون الحاجة للتقرب من ضفاف الأنهار والعراء كما كان في السابق.

4- وفي عهد أرسن ولارسا وعن طريق مخلفات المقطع الذي صوره وولي ظهر انتصاب أربع أعمدة في فناء الدار المركزي تحمل وبشكل مربع أو مستطيل بالكون خشبي صار يدور حول الفناء بشكل ممر يظله سقف الطابق العلوي ويوفر له الحماية من المطر شتاءً وحرارة الشمس صيفاً.

سادساً: مفهوم القطاعين العام والخاص في تخطيط المدن الديمومرية وأساسها الاقتصادي:

من الخصائص التخطيطية الحضرية والإقليمية التي تؤكد عليها الدراسات المعاصرة هو مبدأ اشتراك المواطنين في مراحل التخطيط والتنفيذ للفعاليات الحضرية والإقليمية[1]، وعلى مختلف الأبعاد المساحية سواء على مستوى ما يعرف بالمخطط الهيكلي للإقليم أو المخطط التفصيلي للمدينة. أي التصميم الأساسي لها ويأتي هذا التأكيد عبر الإيمان بأن المردود الاقتصادي والاجتماعي

١- للمزيد انظر الأشعب - د. خالص - التخطيط الطبيعي ضرورة طبيعية دائمة لتطوير مستوطناتها البشرية، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية المجلد العاشر ص 169-202.

والعمراني لهذه الفعاليات هو أولاً وأخيراً لصالح المواطنين. لذلك يجب إشاعة روح التعاون بين المواطنين من أجل قيام مستوطناتهم البشرية المدنية بتأدية مهماتها الداخلية، والإقليمية بنجاح ينعكس على تحقيق مصالحهم. ولمثل هذا الهدف يتوجب إيجاد شريحة من الناس أو قطاع يؤمن مصالح الجميع ويعمل لها بتوجيه مركزي ذو سلطة تشريعية وتنفيذية "وهو الذي نسميه اليوم بالقطاع العام"، إضافة إلى وجود العناصر والوحدات الفردية التي تقوم بإنتاج السلع والخدمات التي تراها ضرورية لخدمة سكان المستوطنات، وترعى مصالحها عن طريق إنتاجها وهو ما يعرف بـ "القطاع الخاص" الذي تخضع إدارة إنتاجه للفرد نفسه.

إن مثل هذين المفهومين لم يغيبا عن الفكر السومري أثناء قيامه بتخطيط وإن بدا هذا المفهوم لأغراض اقتصادية بحتة، حيث إن بناء نظام الري الذي كون بلاد سومر المعروفة بالرخاء قام على أساس العمل الجماهيري المتمثل بحث الطاقات البشرية لمجتمعات المستوطنات السومرية، مما ساعد على تعزيز سيادة المجتمع، وتوحيد حق ملكية الدولة للأراضي المروية[1]، وحق الملكية العليا لوسائل الإنتاج. الذي أوجد بدوره الظروف اللازمة لظهور مزارع واسعة تضم جزءاً كبيراً من أراضي المجتمع تخضع لملكية عامة كانت تعود أول الأمر إلى سلطة المعبد، ومن ثم إلى الحاكم وأخيراً إلى الملك. وقد أوجدت هذه الملكية حالة أن لم نقل استعباداً فعلى الأقل سلطة لتشغيل عدد كبير من سكان المجتمعات المحلية في هذه المزارع، إضافة إلى الرّق وأسرى الحرب، حيث إن مثل هؤلاء الناس يشكلون القطاع العام ضمن ذلك العمل. الذي يسخر بإرادة ملكية تمثل الحق الإلهي السلطوي للقيام بمثل هذه الأعمال في مزارع المعبد التي شكل وجودها الأساس الاقتصادي للمدن السومرية، فعملت هذه الصيغة على تطوير اقتصاد بلاد سومر باتجاهين[2].

تمثل الأول بتحويل ملكية الأرض للدولة حيث كان الحاكم الإلهي يمثلها في بادئ الأمر ثم الملك فيما بعد، وكان العاملون فيها يمثلون القطاع العام وهم المأمورون بتنفيذ ذلك العمل. وتمثل الثاني بتجنيد جزءاً من أفراد المجتمع للعمل في مشاريع الدولة، ومن المرجح أن أول الذين شملهم ذلك التجنيد أولئك الذين يعيشون قرب الأراضي التي خصصت كمزارع للمعبد أو المجتمعات القريبة منها، فما أن انهمك هؤلاء في العمل حتى أصبحوا بالتدريج أكثر اعتماداً على المعبد، وتحولوا في النهاية إلى عاملين دائمين يجبرون على تنفيذ ما يؤكل إليهم من أعمال جماعية تتطلبها إرادة المعبد لصالحه أو صالح مجتمع المدينة وما حولها. وقد يتم مثل هذا التكليف على صعيد المدن نفسها،

١- تومنيف - اقتصاد الدولة السومرية القديمة - العراق القديم - دراسة تحليلية لأحوالها الاقتصادية والاجتماعية - ترجمة سليم طه التكريتي - بغداد 1986 ص 99.

٢- المصدر السابق ص 99.

فبناء الأسوار وحفر الخنادق لتحصين المدن السومرية كان يتم أيضاً بمشاركة طوعية من قبل جميع أفراد المجتمع إيماناً. منه بأهمية تلك التحصينات ودفع الأخطار واستتباب الأمن والطمأنينة، لذلك صارت الأسوار عنصراً ثابتاً في البناء الوظيفي للمدن السومرية، وصارت مسؤولية أقامتها تهم الجميع فيشاركون في بنائها، ومثل ذلك العمل كان يتم في بناء المعابد التي دلت تقنية بنائها وعمارتها على أن جهوداً استثنائية كانت قد بذلت لإنشائها، حيث جعلت المنقب هاينرش كما ذكرنا يورد إحصائية تخمينية عن الفترة والأيدي العاملة التي تطلبتها أعمال البناء عن طريق بناء المعابد أن بناء مصطبة زقورة آنو يحتاج إلى 1500 عامل يشتغلون مدة خمسة سنوات لإنجازها، مما يدل على الاهتمام بالمظهر الديني والإحساس الشعبي بأهمية تلك الأبنية، وسلطتها التنظيمية لقيادة المجتمع نحو صالح، ولهذا كان الجميع يندفع للمشاركة بتلك المنجزات تحت قيادة قادرة على حشد وتوجيه تلك الطاقات[1] التي تشبه سيطرة الدولة اليوم على عناصر الإنتاج الذي يعمل فيه معظم أفراد المجتمع.

أما القطاع الخاص فقد تمثل بمجموعة الحرفين والمهرة الذين كانوا يعملون بأجور في مزارع المعبد خارج سور المدينة، وأولئك هم الذين ضمتهم ورش ومعامل وحوانيت المعبد داخل المدينة نفسها من صناع السفن وورش تصليحها، وعمال الموانئ، وسائقي العربات، وكذلك المأجورين من الكتاب، والنحاتين، والصاغة، وصناع السلاح، والبنائين وغيرهم ممن كانوا يقومون بإنتاج السلع والخدمات الضرورية للمدينة وإقليمها المحيط بها.

سابعاً: الخاصية القانونية لتخطيط المدينة:

استطاع الفكر السومري أن يحقق الهدف الصائب وأن يستوعب ماهية المدينة التي تكمن في الإيمان بصحة وظائفها الأصلية، والمهمات التي تولدت عن وجودها ولذلك ضمن الفكر السومري الإبقاء على عناصر البناء الوظيفي المتمثل بالنواة المركزية، والنسيج الحضري المحيط بها، والسور الذي يفصلها عن الريف المجاور وصار ذلك عرفاً في تخطيط المدن عبر الفترات اللاحقة، وبقي نموذجها الأصلي بهذا الحال حتى بعد أن تبلورت مفاهيم وأنظمة المدينة السياسية وفي هذا خاصية قانونية أسداها الفكر التخطيطي الذي لازم تخطيط وبناء تلك المدن من جهة، وفيه من المصداقية وصواب الرأي ما جعل ذلك النموذج سار المفعول لفترات طويلة ارتضاها الإنسان الذي يقطن تلك المدن. كذلك فإن بناء الأسوار حول المدن التي كان هاجسها الأول الحماية والتحصين على الرغم من أنها أصبحت أداة لهيمنة السلطة وبسط سيطرتها على المقيمين إلا أنها كانت بمثابة

١- ففي ملحمة جلجامش ظهر هذا الملك لا يتصرف كحاكم مستبد بل نجده أكثر شبهاً برب الأسرة يود أن يطيع رغبة مجلس الكبار ويطلب قرارهم في بناء سور المدينة.

الحد القانوني الفاصل بين سلطة المدينة وخارجها، ومثل ذلك في قانون حمورابي وشنونا، كذلك فإن المناطق الوظيفية ضمن النسيج الحضري كانت فيها صفة قانونية جعلت من المناطق القريبة من النواة "المعبد والقصر" محل لسكن الطبقة الغنية تليها الطبقة الأقل ثراء، بينما ابتعدت عنها مناطق سكن الطبقة الفقيرة التي امتدت لتصل إلى جوار السور.

أما الموانئ فكانت تقع في موضع ملاصق للسور من الداخل ولها مداخل لتسهل مرور السفن والزوارق عبر مياه الخندق إلى النهر كما في مينائي أور الشمالي والغربي، وعند تلك الموانئ كانت تقع المخازن، وخانات المسافرين، والتجار الذين كانوا يمنعون من دخول المدينة إلى أن صدرت قوانين أورنمو التي سمحت بإقامة الأجانب وقد وجد جزءاً خاصاً ضمن سور المدينة لإقامتهم مثل شارع الأهالي في اشنونه ومثله في سبار[1] ونفر، حتى أن السلطة القانونية تدخلت في تحديد مواقع بعض الفعاليات الدقيقة التفاصيل، إذ ظهر لاحقاً عن طريق كتابات الأمير جوديا حاكم لجش أن الأخشاب المستوردة يجب أن تخزن في مواقع خاصة بها لحين الحاجة إليها، ومثل تلك المنطقة كانت تسمى e. nig. Ga[2] مما يدل على الخاصية القانونية لجميع مناطق الوظائف المدنية التي صار وجودها نموذجاً قانونياً.

١- موسوعة "حضارة العراق"- مصدر سابق ج 3 ص 286.
٢- ليفي - مارتن - مجلة النمط والتنمية - مصدر سابق ص 123.